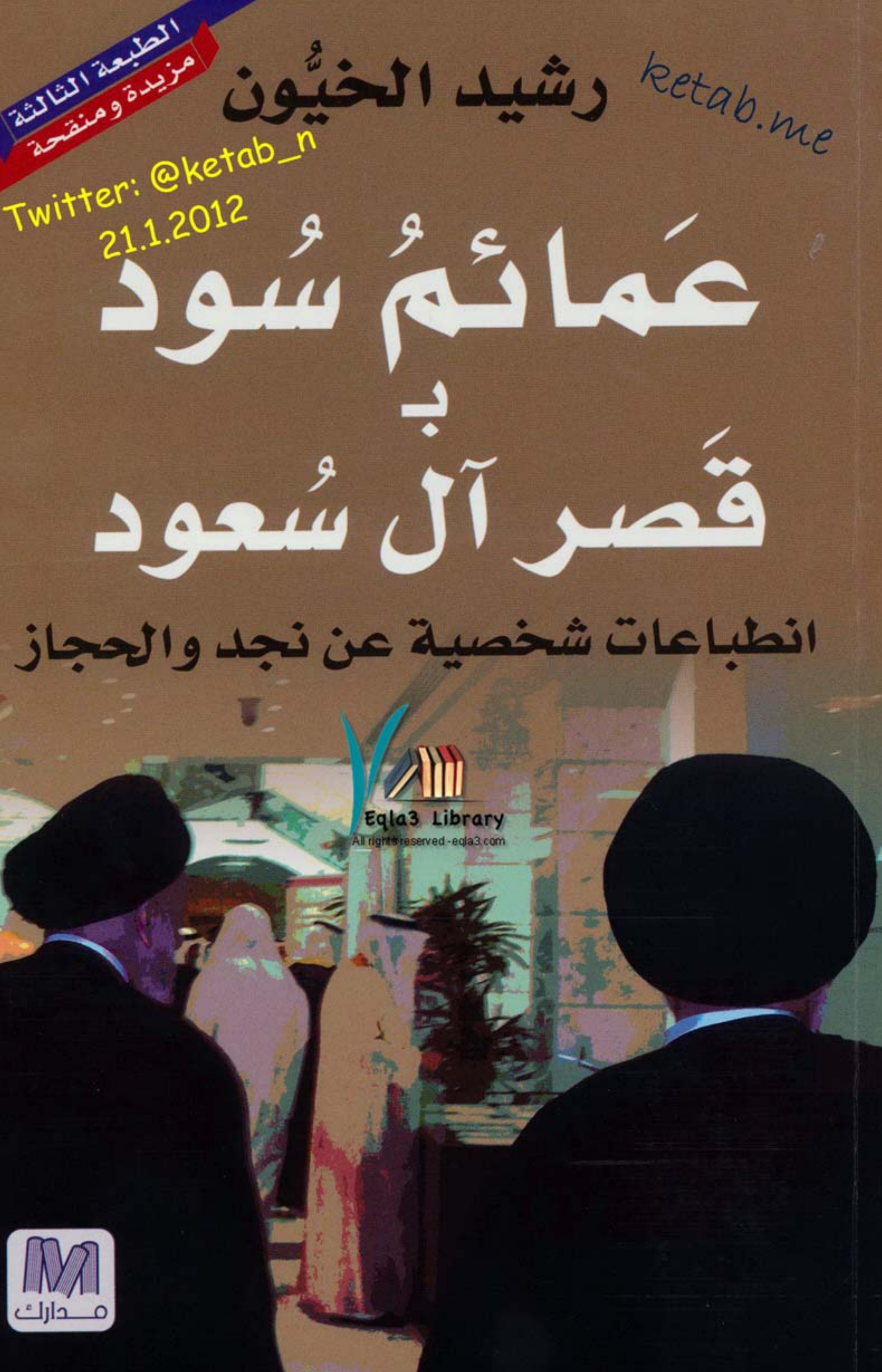


الطبعة الثالثة
مزيدة ومنقحة
رشيد الخيُّون
Ketab.me
Twitter: @ketab_n
21.1.2012
عَمائمُ سُود
بـ
قَصر آل سُعود
انطباعات شخصية عن نجد والحجاز
Eqla3 Library
All rights reserved - eqla3.com
مدارك

رشيد الخيُّون

عَمائمُ سُود
بـ
قَصر آل سُعود

انطباعات شخصية مِنْ نَجد والحِجاز



عَمائمُ سُود

بـ

قَصر آل سُعود

انطباعات شخصية مِنْ نَجد والحِجاز

الكتاب: **عَمائمُ سُود بقَصر آل سُعود**
انطباعات شخصية عن نَجد والحِجاز

المؤلف: **رشيد الخيُّون**

التصنيف: رحلات - السعودية

الناشر: دار **مدارك** للنشر

الطبعة الأولى: يناير (كانون الثاني) 2011

الطبعة الثانية: فبراير (شباط) 2011

الطبعة الثالثة: أغسطس (آب) 2011

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN 978-9953-566-11-5

صورة الغلاف: تصوير المؤلف

الكتاب متوفر على الإنترنت:
مكتبة نيل وفرات. كوم
www.nwf.com



Tel.: 00961 1 282075 - Fax: 00961 1 282074
Gharios Center, Forn Elchebbak, Beirut - Lebanon
www.mdrek.com - read@mdrek.com
P. O. Box: 50074 Forn Elchebbak - Lebanon
سنتر غاريوس، الطابق الرابع، فرن الشباك، بيروت - لبنان

الإهـــداء

إلى مَنْ يهدم حواجز الحِوار في زمن القطيعة
إلى مثقفي السُّعودية كافة.

بلادُكَ نجدٌ والمُحِبُ عِـراقي
فغيـرَ التَّمني لا يكـون تــلاقي
ولو أنَّ طيفاً زارَ طرفيَ ساهداً
لكنتُ رجوتُ القُربَ بعــدَ فراقي
بلى قد أرى تلكَ المغانيَ تلَّعــةً
فأحــب أنـــي زائـــر ومـــلاقـــي
أرى الدَّهرَ يأبى في تألف شملنا
كأنـــي أعاديـــه فـــرام شقــاقي

المجتهد السَّيد محمد سعيد الحبوبي
(قُتل 1915)
فقيه نجفي عاش بنجد ردحاً مِنَ الزّمن(الدِّيوان، ص 302)

المحتوى

استهلال

جاءت هذه الصَّفحات خواطرَ عن مكان فكرت كثيراً في شدِّ الرِّحال إليه، لِمَا شغل الذَّاكرة، فالجدود الأعلون والأدنون زاروه عبر الصَّحراء أوعبرَ البحر، وتحدثوا عن مشاهداتهم، لكن مِنْ دون تدوين، ولم يكن ذهابهم لسياحة أو لفضول إنما هي الفريضة التي جاءت في الكتاب، بشرط التَّمكن مالاً وجسداً: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: 97).

إلا أن الكثيرين منهم شدوا الرِّحال مع العوز والضُّعف، لعلَّ الله يتوفاهم هناك فيضمنوا الجنَّة، ويشهدوا المنافع أيضاً، وهي أهمية مكة القديمة كونها عبادة ترادفها السُّوق: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ (الحج: 27 – 29).

زرت العديد مِنْ البلدان ولم يخطر كتابة خواطرَ تفصيلية، فربُّما اكتفيت بنشر مقال أو خاطرة، إلا نجد والحجاز، وجدت نفسي وأنا أسير في شعابهما واترقب تاريخ المكان، وأفكر ماذا سأكتب عنها! هل رواية عمَّا سمعته، أم تسجيل مشاعر طالما تماهت في المعلقات السَّبع وبمغامرة عشاقهما من عنترة بن شداد إلى قيس بن الملوح، وجميل بن معمر، ووادٍ قيل أقام فيه محمد بن الحنفية (ت 81 هـ) وحوله عسل وماء، ألا هو وادي رضوى، ومن هناك كان خبر ما عُرف في كتب الملل والنِّحل بالكيسانية!

لم استعن بورقة وقلم، أو آلة لستجيل ما دار مِنْ حوارات مع مثقفين ورجال دين أو مِن عامة النَّاس: سائق سيارة أو عطار مثلاً، وما شهدته مِنْ عمران وبادية مازالت رمالها بكر ربما لم تدوسها قدم الإنسان، فالأرض شاسعة والأفق متابعد. بل أكتب مستنداً إلى فكرة أن ما يطبع في الذِّهن، مِنْ صورة أو كلمة هي التي تستحق عنوان الخاطرة.

ما أكتبه هنا ليس عملاً صحفياً ولا أدبياً، كي لا يُطلب مني الإلتزام بأُصول فن الرواية أو القصة القصيرة مثلاً وتقاليد كتابتها، بقدر ماهو استذكار، خالٍ مِنْ تكلف الكتابة والبحث، وربما خالجه الخيال وطعم بالهواجس. لذا فليعذرني القارئ على قراءة ماجاء عفو الخاطر عن مكان شغلني كثيراً وشغل الملايين

مِنْ أمثالي. دخلته وكأني أعرف تفاصيله مِنْ كتاب أو حديث جدٍ وأبٍ وقريب شدَّ الرِّحال إلى الحج والعُمرة، أو صديق مِنْ أهل هذه البلاد. فكنت محدداً ما يجب أن أرى وأسمع قبل السَّفر، مِنْ دون رسم خارطة مسبقة، بل الزِّيارة برمتها كانت غير متوقعة، على الرَّغم مِنَ التَّفكير بإنجازها يوماً مِن الأيام. لكن الفرصة لم تسنح، فلا أنا مِن التُّجار في موسم الحج أو العُمرة، ولا مِن المبكرين إلى تأدية الواجب وغنم الثواب، وهو لـ ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، والاستطاعة تحمل أكثر مِن وجه، منها المادية ومنها النَّفسية أيضاً.

مثلما ذكرتني أخلاق النَّاس طباعهم، وبعض لهجاتهم، وأعرافهم وثيابهم وأغطية رؤوسهم، بما ألفته بجنوب العراق، الزُّبير على وجه التَّحديد، وكم مِنْ «الزبارا» هنا بالرياض وتوابعها مِن البلدان، على حد التَّسمية النَّجدية لأهل الزُّبير، بكوفياتهم (شماغاتهم) الحُمر. ذكرني عمران مدينة الرِّياض بالعمران التَّقليدي، القديم منه والجديد، لأي بلدة تقوم وسط الصَّحراء، وتبقى إلى أبد الآبدين جامعة بين صناعة المدينة وعفوية الصَّحراء، كذلك وجدتُ البصرة بشناشيلها وسط مدينة جدة القديمة، دروبها وأهلها وبضاعتها ورائحتها.

قلتُ سمعت كثيراً، وقرأت أكثر مما سمعت، عن إقليمي نجد والحجاز، تلك الأمكنة التي أصبحت تُعرف بالمملكة العربية

السُّعودية منذ 1932 مع عسير والأحساء. أول سمعنا ومعرفتنا بالمكان كان، مثلما تقدم، مِنْ أفواه حِجَّاج بيت الله الحرام، وهم يتقاطرون مِنْ العراق سنوياً، بلا انقطاع، على مكة وشعابها، ماعدا السَّنوات التي رأى الفقهاء والسُّلطة في العهد العباسي تأجيل أداء الفريضة، وذلك للحروب الدَّائرة بين الخلافة والمتمردين عليها، كالقرامطة على سبيل المثال لا الحصر، خطفهم للحجر الأسود لسنوات طلباً لتغيير مسلك الحجيج مِن مكة إلى البحرين حيث دولتهم، التي استمرت أكثر مِن تسعين عاماً، وكانت تجربة لها وما عليها.

كان لكلٍّ حاجٍ قصته ومشاهداته ومبالغاته، وما أن يعود إلى بلاده حتى يتبدل لقبه إلى الحاج، بينما لم أجد لهذا اللقب أثراً، على حدٍّ علمي، بارزاً بنجد أو الحجاز، ويبدو أنه لقب حديث قياساً بِقدم الفريضة، ولم أصادف سعودياً يُخاطب بالحاج، إلا إثناء الموسم، ولعل للقاعددة شواذ. فلم يظهر أمامي هذا اللقب داخل نجد والحجاز أو خارجها مِن بلاد الإسلام في أمهات التَّاريخ والتَّراجم، فهو تاريخ على ما يبدو لا يتعدى الدَّولة العثمانية. مِنْ هؤلاء الحِجَّاج مَنْ يصف الطَّريق الذي شقته السَّيارات، مِن عابرات الصحارى، ومنهم مَنْ يتحدث عن بحر الظَّلمات، الذي عبرته الطَّائرة، هكذا سمعت باسم البحر الأحمر وربما غيره مِن المياه المجاورة مِن أحد الحجاج البسطاء، مِن الذين لا يعرفون الجغرافيا ولا التاريخ.

وهناك هنيئاً لمَنْ يتوفاه الله ويدفن في أرض مكة أو المدينة، فمع البكاء والنَّحيب، الذي يُستقبل به أصحابه الحِجَّاج عادة، إلا أن هناك ما يُعزي أهله، بأنه مبروك له تلك (الموتة)، مثلما يقولون، على أنها غفران لما تقدم وما تأخر مِنْ ذنوبه، وأن ربَّ العالمين أحبه فأخذ أمانته قُرب بيته الكعبة أو قرب قبر رسوله وبيقة الأولياء.

قرأت عن نجد والحجاز بالمدرسة مِن الطفولة وحتى الشّباب، مما ورد في السِّيرة النَّبوية، وتاريخ المغازي والمعارك، وما تركته معلقات الشِّعر السَّبع وقيل العشر مِن أثر في العواطف والعقول، وما كُتب عن طريق الحاج التاريخي، الممتد مِن العراق حتى الحجاز، الذي شيدته السِّت زبيدة بنت جعفر (ت 216 هـ) حفيدة أبي جعفر المنصور (ت 158 هـ)، وزوجة أشهر خليفة عباسي، هارون الرَّشيد (ت 193 هـ)، وأم أول خليفة يُقتل مِنَ العباسيين، وعلى يد جيش أخيه عبد الله المأمون (ت 218 هـ)، وهو محمد الأمين (198 هـ).

ولشهرة هذه المرأة المدفونة في مقابر قريش بالكرخ، حيث مرقد الإمام موسى الكاظم (ت 183 هـ) غربي بغداد، أُشير إلى قبر سميتها زبيدة بنت هارون الجويني، أم رابعة بنت أحمد ابن آخر خلفاء الدولة العباسية المستعصم بالله (قُتل 656 هـ)، على

أنه قبرها، وقيل القبر المذكور لزُّمرد خاتون أم أحد أقوى خلفاء الدولة العباسية، وأطول حكماً، والقاضي على إزدواجية السلطنة مع الخلافة، النَّاصر لدِّين الله (ت 622 هـ). لكن الرَّأي الأول هو الأرجح بدلالة الاسم والنِّسبة(العزاوي، العراق بين احتلالين 1 ص 406). تعلو القبر منارة مخروطية الشَّكل مازالت قائمة في جهة الكرخ قرب ضريح الشَّيخ معروف الكرخي (ت 200 هـ). هذا وإن للباحث والأثري السُّعودي سعد عبد العزيز الرَّاشد كتاباً مرموقاً تحت عنوان «درب زبيدة .. طريق الحج مِنْ الكوفة إلى مكة المكرمة» (الرِّياض، دار الوطن للنِّشر 1993).

ناهيك عن القراءة الخاصة حول تلك المشاهد، ثم ارتباط الهواية والدراسة والعمل في الكتابة، وما يقضتيه التعامل مع ُمهات التَّاريخ، ولأخبار نجد والحجاز الحصة الأكبر في صفحاتها، فهما مكان الدَّعوة الإسلامية، وميادين الغزوات والمعارك. لكلِّ هذا بقيت متشوقاً لرؤية تلك الأمكنة، لعلِّي أجد بين رمالها أثراً مما قرأت وسمعت، فهي في مخيلتي مازالت أرضَ صراع ومنافحة كما كانت، منذ نشأة البيت الحرام حتى ظهور الإسلام مِنْ بين أوديتها مروراً بالهجرة النَّبوية، وبالمعارك الحاسمة في تاريخ المنطقة: بدر (2 هـ)، الخندق (5 هـ)، وأُحد(3 هـ)، وبقية الحوادث الراسخات في التاريخ، وذاكرة المسلمين عامةً.

ربما تساءل القارئ الكريم عن عنوان تلك الانطباعات والخواطر «عمائم سُود بالقصر السُّعودي»، وقد ورد عنوان الطبعة الأولى «عمائم سُود بالقصر النَّجدي»، لكن منذ 1932 أمسى اسم البلاد المملكة العربية السُّعودية، وثبت ذلك في أذهان الأجيال، لذا يجدر أن يكون العنوان «...بالقصر السُّعودي»، وقد جاء ذلك بملاحظة مِنْ النَّاشر، وبما أن النُّفوس توَّاقة إلى السجع مِن الكلمات، ورنة الموسيقى فيه صار عنوان هذه الطبعة: «عمائم سُود بقصر آل سُعود». إلا أن العنوان كان كافياً لمنع الكتاب مِن العرض في معرض الرِّياض الدولي.

وهنا لا أُخفي انشغالي في هذا المشهد، عندما رمقت أمامي عمائم سُوداً وبيضاً داخل القصر الملكي بالرِّياض، وجلوس أصحاب تلك العمائم على طاولة واحدة مع مشايخ نجد، مِنَ الذين تعودنا على تسميتهم بالسلفيين الوهابيين، وكأن ذلك المشهد كان إرهاصاً بمصالحة مذهبية بين متخاصمين لعقود مِنْ الزَّمن، وفقهاء يتربصون ببعضهم بعضاً، مِن دون حساب للمشتركات وتبدل الأزمان، وما يواجه الأتباع مِن مخاطر، فالكراهية تعدت حدودها إلى الذبح على الهوية. مع أن الحق هو ليس هناك مَن اختار مذهبه كي يكون مسؤولاً عن انتمائه، فيمكن أن يُحاسب الإنسان على انتماء سياسي أو حزبي ما، في الدول الاستبدادية عادة، ولكن كيف يُحاسب ويُحكم عليه بالموت ذبحاً على هوية لم يختارها سوى كانت دِّين أو مذهب ورثهما عن آبائه وأجداده.

صحيح، إن الشَّيخ والفقيه الشِّيعي الإمامي اللبناني، محمد جواد مَغنية (ت 1979)، جالس العديد مِنْ مشايخ هذه البلاد، عند تأديته لفريضة العام 1964. لكنه عاد إلى بلاده وكتب «هذي هي الوهابية»، بعد لقاءات ومناظرات عقدها مع قضاة وخطباء ومشايخ. وحسب قوله، وجد في بعضهم التَّسامح والتَّواضع، وفي البعض الآخر التَّشدد.

وكنت أظن أنه سيعزم على إبراز التَّسامح، في كتابه وترك التَّشدد الموجود لدى كلِّ المذاهب، مثلما نرى ونسمع، لكن زمن 1964 لا يُقارن بزمن 2010، فالحاجة قصوى إلى التَّعارف والتَّسامح، وعندها أثارني مشهد العمائم وهي معتمرة على رؤوس أصحابها الفقهاء الشيعة داخل القصر النَّجدي السعودي، أو قصر الملوك مِن آل سُعود، وبين أروقة الحوارات والمناقشات، وبدعوات رسمية، وجهاً لوجه. بل إن الجلوس إلى طاولة واحدة، مع مَن عدوا مِن المتعصبين الوهابيين يُعدّ إنجازاً قياساً بالتَّركة الثَّقيلة مِنْ الخلاف والتَّناكف. كلُّ هذا دعاني إلى إبراز المشهد ليكون عنواناً لما ستقرأه أيها القارئ النَّبيه.

كانت هذه الخواطر بفضل حضور مهرجان الجنادرية، لأول مرة، وهو يطفئ شمعته الخامسة والعشرين، وذلك بين 17 آذار (مارس) و2 نيسان (أبريل) 2010، ومما سأكمل عليه في

رحلتي التالية مِن خاطرات، وإذ اعتذر مسبقاً لمَنْ ورد اسمه، ولعله لا يرغب بذلك، فحجتي أنها كانت أيام حوارات ثرية ورحلة اكتشاف. وفي الوقت نفسه اعتذر سلفاً لمَنْ التقيته وحاورته ورحب بيَّ وغاب اسمه عني.

ولا أنسى ذلك الشَّاب الإعلامي، الذَّي تقدم نحوي لغرض إجراء مقابلة في الإذاعة السُّعودية، واعتذرت له، ولما سألته مِنْ أين أحصل على شريحة تلفون سعودي محلي؟ قال بلا تردد: «لدَّي واحدة إضافية، مسجلة باسمي، استعملها ما بدا لك، لكن بعد تركك البلاد إما تُعيدها لي أو تتلفها». وكان لا يعرف حتى اسمي، مع علمي بخطورة استغلال التَّلفونات في (جهاد) المتطرفين، ممَنْ حولوا أوروبا وهي البلاد السَّمحاء والراسخة الأمن إلى ثكنات عسكرية، فكيف بالبلاد التي يعرفون شعابها شعباً شعباً! وقس على ذلك. أما المقابلة التي طلبها مني ذلك الشاب فلأني ضيف مِنْ ضيوف المهرجان، لا لصفتي الشَّخصية، فالشَّاب، مثلما قلت، لا يعرف اسمي ولا عملي. سوى إنه بعد ظهوري على شاشة الفضائية «الثقافية» السُّعودية عاد واتصل بي مرحباً بعد أن تعرف على اسمي وهويتي.

لكن آخر يوم لي بالمملكة اتصلت به وشكرته، وقلت له: بعد هذه المكالمة مباشرة سأتلف شريحة التلفون، لتعذر مقابلته،

فالمغادرة ستكون مِنْ جدَّة لا مِنْ العاصمة الرِّياض. شكرني مِنْ دون أن يطلب دليلاً على مصداقية كلامي، وقد تم ذلك بالفعل، له الشُّكر، والعذر لغياب الاسم عن البال مع بقاء الرَّسم حاضراً.

ما حملته الذَّاكرة

قبل نِّية السَّفر، إلى المملكة العربية السُّعودية، كانت الصُّورة غائمة في ذهني، تتأرجح بين ذلك التَّاريخ وامتداداته والنَّظرة إلى المجتمع السُّعودي، وما يهيمن عليه مِنْ تشدد، إلى حد كنت أظنه يفترس كل فكرة حداثية على أنها بدعة، مع علمي أن كل العلوم والآداب وصناعة الآلات والأدوات لا تخرج عن حكم البدعة، ومفردة البدعة تعادل الضَّلالة مثلما سمعنا مِنْ أفواه فقهاء المذاهب عامةً. وأخذتني الدهشة وأنا أقرأ وأسمع فتاوى التكفير من أفواه فقهاء البلاد، وشجبهم للفنون وكل ما يعني الجمال، بينما هناك سعوديون ذو شأن كانوا وراء دعم أشهر الفنانين والموسيقيين، مِن مستوى أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب وغيرهما.

استقرت نَّظرة أن تكون السعودية بكاملها عبارة عن صندوق مغلق في ذاكرتي، ولم تتمكن قراءاتي لكتب وروايات ومقالات سعودية، بل وعِشرة أصدقاء، خلوا مِنْ التَّعصب، لفترة طويلة، مِنْ اهتزاز تلك الصُّورة النَّمطية. وما كانت الرَّغبة في

السَّفر إلى تلك الأرض إلا لمراجعة تاريخية، أو لنقل تطبيقات لما قرأته وحفظته عن ظهر قلب مِنْ تاريخ محمد بن عمر الواقدي (ت 207 هـ) في غزواته، ومحمد بن جرير الطَّبري (ت 310 هـ) في تاريخه، وأبي الحسن المسعودي (ت 346 هـ) في مروجه وغيرهم، أي حتى انتقال الثُّقل في الرِّواية إلى العراق، عند اتخاذ كوفته عاصمة مِن قِبل الإمام علي بن أبي طالب (اغتيل 40 هـ)، والشَّام في العهد الأموي، ثم العودة إلى العراق وتهميش الشَّام، عند انتقال عاصمة الخلافة مِنْ دمشق إلى الكوفة والأنبار مؤقتاً ثم بغداد في العهد العباسي.

كانت الأفكار تتزاحم في مخيلتي والطَّائرة تتجه إلى الهبوط في مطار الملك خالد، المطار المركزي بمدينة الرِّياض. كيف يكون شكل المدينة، التي يخترقها وادي حنيفة، حيث دارت إحدى المعارك الفاصلة في تاريخ الإسلام السَّنة 11 هـ، وما عُرف بحروب الرِّدة، وما عُرف في ذلك الوادي لكثرة القتل وخطورة المعركة بـ«حديقة الموت» آنذاك.

جالت في تلك الرِّمال حوافر خيل أشهر الفرسان والشُّعراء، ومِنْ هذا المكان رويت قصة الحب لتشكل نظرية عربية في العشق، حسب كتاب الباحثة الألمانية(لويس غفن)، وحيث قصة قيس وليلى أو مجنون ليلى، ولا ندري كيف التقى العاشق النَّجدي قيس

ابن الملوح بليليثا السُّومرية، شيطانة العشق، والشَّيطانة أيضاً في كتاب الصَّابئة المندائيين المقدس «الكنز ربا»، ثم كيف نُحت اسم ليلى ليكون رمزاً للعشق! كيف سيكون التَّعامل في المفردات، التي يرفضها تشدد مدينة مثل الرِّياض، فمِن أرضها انطلقت الحركة السَّلفية الكبرى، وشاعت تحت اسم «الوهابية»!

لكثرة ما سمعت عن قوة هذا التَّشدد وصلادته، كنت أتعجب مِنْ مواصلة كُتاب وباحثين وباحثات سعوديين وسعوديات، التقيت بهم وامتدت بيني وبينهم صداقات ذات عُرى متينة. كنت أعجب مِنْ مواصلة الكتابة التي تشي بالتَّمرد على الأُطر العامة، أو على ما تحمله مخيلتي عن المجتمع السُّعودي، حيث رجل الدِّين ينتصب قوياً مذكراً بعقوبة الانحراف عن السَّائد لحماية الدِّين والمذهب، مما تأتي به الرِّياح مِنْ الغرب، أو التَّمرد مِنْ خلال نصٍ أو كلمة.

مع أني لم أجد شخصية تلاحق الكاتب، وتحسب على الأُلسن فلتاتها مثل الشَّيخ المصري يوسف البدري، الذي أحال مَنْ أحال مِنْ أهل الآراء إلى القضاء الدِّيني، مع الفارق بين مدنية المجتمع المصري وقَبلية المجتمع السُّعودي وبداوته، وقوة رجل الدِّين لدى الأخير، لكن الأمر لم يصل إلى تحريم أو منع ديوان أبي نواس على القارئ السُّعودي مثلاً، وربما لم يفتتح معرض كتب في العديد

من العواصم مثلما افتتح معرض الرِّياض في السَّنوات الأخيرة بلا رقابة صارمة، وأقول الأخيرة لأن الأمر مِنْ قبل كان مختلفاً.

كنت اسمع بمهرجان الجنادرية الذي يقيمه الحرس الوطني السُّعودي منذ خمسة وعشرين عاماً؛ لكن الصُّورة كانت ضبابية عندي تماماً، وكنت اعتقد أن هذا المهرجان مقتصر على عدد مِنْ المثقفين العرب لا يتعداهم، يأتون كل عام لأيام تلقى فيها محاضرات وقصائد شعر، ويوفدون لمعاينة آثار الصَّحراء، وربما يكتبون المقال أو المقالين، على أن يُدعوا في العام القادم، ولا يمنع بعضهم مِنْ الحضور سوى الوفاة. في هذا المهرجان، مِنْ كلِّ عام، تؤدى عادةً ورسمياً «العرضة» السُّعودية ذات العمق الصَّحراوي، وهي بطبيعة الحال مقتصرة على السُّعوديين فحسب، وعلى مَنْ تمرس على أدائها، وقيل لي، خلال حفل الافتتاح، إن أفضل مَنْ يؤديها هو الملك عبد الله بن عبد العزيز منذ شبابه.

استغرب، مع الصُّورة النَّمطية التي تحملها ذاكرتي عن طريق السِّماع والقراءة، كيف تمكن كُتاب وصحافيون وباحثون وإعلاميون مِنْ مواكبة التَّطور الثَّقافي! وكيف نافس عدد مِنْ هؤلاء في عواصم الحداثة الأوروبية! وكيف تمكنوا مِنْ فهم الدِّين خارج التَّشدد، وهم يعيشون في واحته، وحولهم بيوت الدِّرعية ما زالت شاخصة مهددة ما ستأتي به رياح الحداثة! وهل أن المجتمع السُّعودي مغلق

إلى هذا الحدّ، بما لا تهتز الصُّورة في ذاكرتي، بعد قراءة روايات وكتب ومقالات تركي الحمد، وغازي القصيبي، وإبراهيم البليهي، وعبد الرَّحمن الرَّاشد، وقراءة العمود اليومي لتركي السُّديري، وهو مِن جيل ما قبل الحداثة، ومخالطة الإعلاميين والكتاب والباحثين المعروفين، مِنْ أمثال: عثمان العمير، وتركي الدّخيل، وجمال خاشقجي، وحسناء القنيعير، وبدرية البِشر، ومشاري الذَّايدي، وسعود السَّرحان، وعبد الله بن بجاد، ومنصور النّقيدان، والطبيب المثقف يوسف الصَّمعان، وعادل الطُّريفي، وأحمد الحناكي، وشباب مثل: فهد الشّقيران، والطبيب بدر الإبراهيم، وبدر الحربي، ومَن فاتني ذكره مِنَ الأسماء الليبرالية الكثيرة، الذين عرفتهم شخصياً، وممَنْ لم أعرفهم إلا مِنْ كتاباتهم، وبينهم مَنْ له تجربة سابقة مثيرة مع التَّشدد الدّيني، إلى حد حمل السّلاح وركوب الأهوال.

قلت لتركي الدّخيل، بحضور شقيقيه الشابين، الضابط في الحرس الملكي ممدوح الدّخيل والدارس للمحاسبة عبد العزيز الدّخيل: كيف تحولت أسرتكم إلى الحداثة في الرؤية والسلوك الليبرالي في الحياة، مع أنكم مِن منطقة القصيم، ثم الولادة والنشأة بالرياض؟! هل هناك تاريخ للأسرة، أم احتكاك وتأثير معاملة! فوالد تركي عبد الله الدّخيل رجل أعمال، أخذ الحرفة عن الجد، الذي لم يترك واجباته الدّينية ولا التزماته تجاه المسجد،

لكنه كان لا يكترث كثيراً بما لا يقتنع به مِن وصايا الفقهاء، أي يحسب حساب واجباته تجاه خالقه وكفى.

فتركي نفسه لولا تأثير والده الليبرالي لغاب عن الحياة وهدر عمره بين جبال إفغانستان مجاهداً، وعاش والده في حيرة معه تجاه التزامات الولد الدينية المتشددة، كموقفه مِن التلفزيون وحجاب الأخوات إلى غير ذلك. هذا مثال على الفجوات في البيئة مهما كانت صلدة متماسكة. وغير أسرة آل الدِّخيل المئات، لكن بحكم الصلات والوشائج تعرفت عليها مِن قرب، وصرتُ واثقاً مما أسرده مِن مثال على ليونة الصحراء مع جفافها القاسي.

لكن تبقى تجربة الكاتب محمد بن عبد اللَّطيف آل الشَّيخ لافتة للنَّظر في الوسط السُّعودي، فهو المجادل المدافع عن لبراليته، واستقلالية فكره، وهذا الذي عرفته من خلال ما أقرأه له على صفحات الجرائد، ومِنْ لقاء واحد جمعني معه منذ سنوات. فمحمد آل الشَّيخ يتحدر مِنْ العائلة التي اقترن اسمها بالدِّين، وبالثُّنائي مع السُّلطة السِّياسية، وهم آل سعود وآل الشِّيخ محمد بن عبد الوهاب. وعلمت مِنْ أصحاب المعرفة بتاريخ الأسرة أن والده، وهو الشَّيخ عبد اللَّطيف ابن الشَّيخ إبراهيم، كان نائباً للمفتي شقيقه الشَّيخ محمد بن إبراهيم آل الشَّيخ.

فربما تفهمنا خروج أبناء، أو أحفاد، مراجع دين لدينا بالعراق على النَّمطية الأسرية، مبتعدين عن اعتمار العمائم، لكن العراق

غير السُّعودية، بلد مفتوح على مصراعيه، ومنذ العهد العثماني، فلم يتمكن التَّشدد الدِّيني المكوث فيه إلا ما ندر. فمِنْ آل الحكيم مَنْ انتظم في الحزب الشُّيوعي العراقي مبكراً منذ الثَّلاثينيات، مِنْ القرن الماضي، وكان أول مَنْ أسس المنظمة الشُّيوعية بالنَّجف هو أحد أقرباء هذه الأسرة. ولا غرابة في الانفتاح النَّجفي إذا قرأنا للمرجع الدِّيني الشَّيخ محمد حسين كاشف الغطاء (ت 1954 هـ) البيت الآتي (الخاقاني، شعراء الغري):

ومَنْ يأمن النَّاسُ مِنْ شرِّه
أآمن بـربِّــه أم كفــر

ومِنْ قبل لنا في تحول معروف عبد الغني الرَّصافي(ت 1945) مثلاً حياً، وكان مشروع رجل دين، وربما لو استمر لاختاره أستاذه الشَّيخ العلامة محمود شكري الآلوسي (ت 1924) وريثاً له، وتحول العديد مِنْ أبناء وأحفاد آل الآلوسي، وآل كاشف الغطاء، وآل الواعظ، وآل الشَّبيبي، وغيرهم مِنْ الأُسر ذوات الباع في العلم الدِّيني، عن طريق الآباء والأجداد.

لكن الرَّصافي فارق عِمامته (1909)، في العهد العثماني، وهو بتركيا، خوفاً مِنْ جماعة الاتحاد والتَّرقي، التي اسقطت السُّلطان عبد الحميد الثَّاني (ت 1918)، وحظرت اعتمار العمائم في وقتها، ولم يعد إليها، وهو القائل في تعلمه مِنْ شيخه الآلوسي

بعد حين (الرَّصافي، يروي قصة حياته):

لُقنت في عصر الشَّباب حقائقاً

في الدِّين تقصر دونها الأفهامُ

ثم انقضى عصر الشباب وطيشه

فإذا الحقائقُ كلُّها أوهامُ

على أية حال، إن ظاهرة محمد عبد اللطيف الليبرالية، والتَّحررية البارزة في كتاباته، تدعوني إلى التَّأمل كمراقب للمشهد مِنْ الخارج على الأقل، بل إن الظَّاهرة الليبرالية بالمملكة السُّعودية برمتها تحتاج إلى دراسة، وأراهم ليبراليين أشداء، نبتوا على أرض صلدة، غارقين في الفعل الثَّقافي، والجدل الحضاري، أشعر في ذلك مِنْ مجالستهم، ومطاردة الرُّدود على خصومهم وبين بعضهم بعضاً، والوقوف على الآراء، ليس مِنْ خلال ما يكتبونه، ولا لما يكتبه زملائهم مِنْ بقية العرب بل لاهتمامهم بالثَّقافة الأجنبية أيضاً.

إن مايلفت الانتباه لظاهرة الليبرالية، المقيدة بطبيعة الحال بأخلاق المجتمع وعاداته، أن أكثرها انطلق مِنْ منطقة القصيم شمالاً، وبريدة بالذات، وهي منطقة ذائعة الصِّيت بتشددها وانغلاقها، وإن يُذكر الليبراليون اليوم المتحدرين مِنْ تلك المنطقة فليس لأحد نسيان المفكر عبد الله القصيمي(ت

1996)، الذي تقترب شخصيته وتمرده، بل وتحوله، مِنْ العراقي معروف عبد الغني الرَّصافي.

إن نسيت أشياءً ومواقفَ فلا أنسى هجوم الأكاديمية السُّعودية حسناء القنيعير على كاتب عُماني، حين كنا في ندوة الخطة الثَّقافية لمجلس التَّعاون الخليجي بالكويت، مايو (أيار) 2008، لأنه أشار إليها قائلاً: «يا حرمة»! فبعد أن فشل بتهدئتها موضحاً أنه لا يقصد التَّقليل مِنْ شأن المرأة، أخذ يُفسر الحرمة وحظوة المرأة بها، وهو تكريم للمرأة لا إهانة! وغاب عنه أن القرآن ذكرها بالمرأة لا بالحُرمة، وذَكرهنَّ بالنِّساء لا بالحريم، وبـ ﴿بُيوتِهِنَّ﴾ (الطَّلاق 1) لا بالحرملك! وفي شأن انتصار حسناء وخيبة صاحبنا، لابد مِنْ الاستشهاد بأبي الطَّيب المتنبي (اغتيل 354 هـ):

وما التَّأنيث لاسمِ الشَّمسِ عيبٌ
ولا التَّذكيـر فخـرٌ للهـلالِ

كيف أفهم الأحاديث التَّنويرية مع تركي السُّديري ويوسف الكويليت، الذي يكتب رأي جريدة «الرِّياض» اليومي، وهو رأي يقرب كثيراً مِنْ رأي الجهات الرَّسمية، وعجبت مِنْ هذا الكاتب أنه يكتب في أي مكان، وتحت أي ظرف. وعندما يداهمه الوقت يخرج ورقته وقلمه ويكتب حتى مِنْ دون مراجعة، اعتاد على الكتابة بهذه الطَّريقة، ومِنْ يده إلى الفاكس.

عندما تلتقي بيوسف الكويليت أول مرة لا تظنه بهذه الجدية عندما يكتب، فأتذكر أن الوقت حاصره لإرسال مادته لليوم الآخر، وكنا بأبو ظبي، وإذا به يأخذ زاوية وهو في مقعده ويكتب الكلمة، ثم يبعثها عبر الفاكس مِنْ دون إعادة تبييض أو مراجعة، ولم يستعمل الإيميل على ما يبدو بعد، شأنه شأن العديد مِنْ الباحثين والكتاب القدماء، الذّين يصعب عليهم ترك القلم والقرطاس، ويأتي أستاذنا الباحث العراقي علي الشوك في مقدمتهم. وعندما سألت الكويليت عن طريقته في الكتابة مع وجودِنا وأصواتنا الصّاخبة قال: هذا ما اعتدت عليه منذ زمن طويل، أركز وانقطع عن الجميع وأنا بينهم، حتى انتهي مِنْ الكتابة.

هل ينتمي أشخاص حداثيون، توغلوا في الإطلاع على الثّقافات العالمية، مثل الذين ذكرت، إلى ذلك التّشدد، الذي صُبت صورته في ذهني وأذهان الكثيرين حول المجتمع السّعودي! بمَنْ أفسر إصرار تركي الدّخيل في برنامجه إضاءات على تغليب الليبرالية، بل والانتصار لها، ومحاولة إبرازها مِنْ كتابات وآراء جمهرة مِنْ المجتمع السّعودي على وجه الخصوص!

كذلك الحال بالنّسبة إلى الإعلامي سليمان الهتلان، في برنامجه «حديث الخليج» على قناة الحرة! والإعلامية نادين البدير في برنامجها «مساواة» عبر قناة الحرة أيضاً. وفي الآونة الأخيرة

أخذ الكاتب داوود الشريان يطرح في برنامجه «واجه الصَّحافة» مِنْ الأمور التي كان لا يجوز الجدل حولها في مجلس فكيف الغوص فيها عبر التَّلفزيون، وعلى قناة «العربية» المحسوبة على المملكة السُّعودية. ناقش قضية منع قيادة المرأة للسيارة، واغلاق الأسواق في أوقات الصَّلاة، والمحاكم الشرعية والموقف مِن المراة وغيرها. قبل ذلك في عقد التِّسعينيات كان الباحث السُّعودي محمد رضا نصر الله يفتش عن أهل الفكر العقلي والحداثي لاستضافتهم في برنامجه التَّلفزيوني «الكلمة تدق ساعة»، ومازال هؤلاء مستمرين بأدائهم وبتفكيرهم!

الرِّياض... إطلالة تاريخية

بين مطار الملك خالد الدُّولي وفندق (ماريوت) وسط الرِّياض مسافة طويلة، فالرِّياض مدينة شاسعة المساحة، ومازالت تزحف على الصَّحراء، تبلغ مساحتها المعمورة ألفي كيلو متر مربع، وعدد سكانها حوالى ستة ملايين نسمة، لذا تجد داخلها فراغات هائلة، وفضاءات رحبة بين محلة وأخرى، أو حي وآخر، ولا تُرى أنها مكتظة البناء، وتجد بيوتها متسعة. ذلك مِنْ مجموع مساحة المملكة العربية السُّعودية البالغة مليونين وحوالى 150 ألف كيلو مربع، ومِنْ مجموع عدد السُّكان البالغ خمسة وعشرين مليوناً وسبعمائة وعشرين ألف نسمة.

يقطع المدينة وادي حنيفة الشَّهير في التاريخ بمعارك الردة وبخصوبته. والرِّياض شُيدت بالأساس على حجر اليمامة، ولم تُعرف كمدينة إلا في العصور المتأخرة. أخذت اسمها مِنْ مجموعة الرِّياض التي تزدهي مِنْ ماء السُّيول المار في ذلك الوادي، لذا لم نجد لها ذكراً في معاجم البلدان القديمة، ولا أظن أنها المقصودة

برياض القطَا، لكن حَجر اليمامة، الذي قامت الرّياض على أنقاضه مذكور أن أصله لبني حنيفة، وهو مدينة اليمامة وأم قراها الخصيبة، وكان الوالي ينزل بها (الحموي، معجم البلدان).

قامت الرّياض في أول أمرها كسوق في القرن الثّامن عشر، وحتى العام 1824 ميلادية كانت الدّرعية هي العاصمة لفترة الدّولة السّعودية الأولى، ثم اتخذت الرّياض عاصمة. يُنبيك متحفها، أو قلعتها «المصمك» عن قصة الحدث الأهم في قيام الدّولة الحالية، وهي أنه العام 1902 ميلادية تمكن الملك عبد العزيز بن عبد الرَّحمن بن سعود (ت 1953) مِنْ السَّيطرة على «المصمك» بعد بنائها، العام 1895 ميلادية، بسبع سنوات. مازال نصل الحربة، التي بدلت وجه تاريخ مدينة الرّياض، والمنطقة بأسرها، مغروزٌ في خشبة بوابة قصر القلعة الأصلية، وقد شرح لي الصَّديق مشاري الذَّايدي الحدث بدقة، بعد أن انتهينا مِنْ جوبة بالدّرعية.

عند الدّخول إلى الدّرعية، حيث ميدان الأمير سلمان بن عبد العزيز أمير إمارة الرَّياض، تشهق في الفضاء سارية عملاقة، وهي على ما يبدو مِنْ السُّواري السَّامقات بالدُّنيا ترتفع مِنْ الأرض إلى كبد السَّماء، وليس لي علم أيهما أطول أسارية الدّرعية أم سارية إمارة أبو ظبي، التي يُقال عنها أطول سارية أيضاً. ويبدو

التَّنافس في أطول السَّواري وأعلى الأبراج والعمائر والمنائر ظهر مؤخراً لتحقيق نوع مِنْ التَّميز، بدأته كوريا الشِّمالية بسارية علمها الثَّوري. يتكون العلم السُّعودي مِنْ قطعة خضراء مرسوم عليها سيف يحتضن الشَّهادتين، ليقول لك وهو يخفق بحجمه الكبير: مِنْ هناك كانت البداية، أي مِنْ الدِّرعية، عند اتفاق وجود المحمدين: الشَّيخ ابن عبد الوهاب والأمير ابن سعود.

كان اسم الدِّرعية مهيمناً في الذَّاكرة، وهي الآن محافظة مِنْ محافظات إمارة الرِّياض، حصلت أطلالها مؤخراً على عناية مِنْ قِبل منظمة اليونسكو، لحيها القديم «الطِّريف». سميت بالدِّرعية نسبة إلى منطقة مؤسسها الأول مانع بن ربيعة المريدي، القادم مِنْ منطقة «الدروع» قرب القطيف، بشرق المملكة العربية السُّعودية، وأقام فيها في القرن الخامس عشر الميلادي.

برزت أهمية هذا المكان منذ الإمارة السعودية الأولى، حيث تم اللقاء بين محمد بن سعود (ت 1765) ومحمد بن عبد الوهاب (ت 1792)، في القرن الثَّامن عشر الميلادي. تأسست الدِّرعية عاصمةً للدَّولة السُّعودية الأولى (1744 ميلادية) واستمرت حتى (1818 ميلادية) حين اقتحامها مِنْ قبل القوات المصرية بقيادة إبراهيم باشا (ت 1848) نجل محمد علي باشا. وقامت الدَّولة السُّعودية الثَّانية (1824 ميلادية)، واستمرت حتى (1891)،

وكانت نهايتها على يد أمراء حائل آل الرَّشيد. أما الثَّالثة فبدأت يوم اقتحام قلعة المصمك (1902)، ثم أُعلنت المملكة العربية السُّعودية (1932). لاحظت لدى شخصيات عدم تحبيذ توزيع تاريخ المملكة العربية السُّعودية إلى ثلاث مراحل، أو دول، مثلما تقدم، وإنما يراد الحديث عن تاريخ المملكة إجمالاً، بلا فواصل بين حقب أو دول ثلاث.

لا أخفي هواجسي وأنا أتطلع إلى تلك الأطلال، وإلى المسجد الذي كان يُصلي فيه الشَّيخ محمد بن عبد الوهاب، كيف بدلت هذه القرية وجه تاريخ المنطقة، وكيف امتدت على طول الصَّحراء وعرضها، وحتى حدود البلدان المتاخمة لها! وأخذت أربط بين غزوات الإخوان لكربلاء والنَّجف وبادية السَّماوة، وما حدث مِنّ معارك. ولعلَّ هناك صلة بين الدِّرعية التي أقف على أطلالها، بعد أكثر مِنّ مائة سنة مرت على تلك الحوادث، وقرية الدِّرعية بمنطقة النَّجف، والتي كانت بمثابة مضِيفة شيدها زعيم محلة العمارة النَّجفية.

قرأت في كتاب للشَّيخ محمد حسين كاشف الغطاء(ت 1954) الموسوم بعنوان «العبقات العنبرية في طبقات الجعفرية»؛ وهو يقصد أُسرة جده الأعلى جعفر الكبير كاشف الغطاء، لا طبقات الشِّيعة الإمامية عامةً، قرأت عن اتفاق أُبرم بين الشَّيخ

كاشف الغطاء والشَّيخ محمد بن عبد الوهاب، بعد مهاجة النَّجف عدة مرات، وبالفعل «لم تأت غارة للنَّجف مدة بقاء محمد الوهابي في قيد الحياة» (العبقات، ص 113). وأن المرجع الدِّيني النَّجفي أهدى إلى الشَّيخ محمد بن عبد الوهاب نسخة «قرآن نفيس، مِنْ هدايا سلاطين العجم إليه» (المصدر نفسه).

بعد صدور طبعة الكتاب الأولى وجدت مَن ضايقته مثل هذه المعلومة، أو صعب عليه تصديقها، واجهني أحدهم بذلك عندما وجهت لي دعوة مِن الكاتب والوراق محمد المشوح للقاء بمجلسه «الثلوثية» حول الكتاب وقضايا أُخر بدارته بالرِّياض. قال لي: كيف اتفق الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ت 1792) وهو في معارضة مع المذهب الشيعي كليةً؟! أجبته المصدر الذي استقيت منه الرِّواية مخطوط بيد حفيد الشيخ جعفر كاشف الغطاء (ت 1812)، والحفيد مرجع ديني كبير بالنَّجف. ومع ذلك مهما ضعف ذلك الخبر فلمصلحة الحرب على الطَّائفية يجب التشهير به، فإذا لم ينفع فلا يضر، فلماذا تُطمس مثل تلك الأخبار بينما يُثقف بأخبار التعصب والكراهية على مدار الساعة!

والأمر شبيه بما طرحه الشيخ يوسف القرضاوي عندما جرى الحديث عن فتوى إمام الأزهر في جواز التعبد بالمذهب الشيعي، فقد حاول الشيخ عبر منبره الدائم، قناة الجزيرة، أن

ينفي وجود مثل كذا فتوى. بينما من المعروف أن الشيخ محمود شلتوت (ت 1963)، أصدر فتوى بشأن المذهب الشيعي، الزيدي، والإمامي أو الجعفري بالتحديد. وهنا أرى مَنْ يحاول إغفال مثل تلك الفتوى شأنه شأن الذي ينسخ من كتاب القرآن أكثر من مائة آية تحبذ الألفة، وتدفع إلى سعة الصدور، وإلى الكلمة الحسنة، من أهل الأديان، أو من أهل الدين الواحد، وعلى عدد مذاهب المسلمين! فكم تبدو الأرض ضيقة إذا ما ضاقت القلوب أنانيةً، وتورمت الصدور كراهيةً!

بلى، أصدر شلتوت تلك الفتوى، ومخطوطها محفوظ في خزانة ضريح الإمام علي بن موسى الرضا (ت 203هـ)، وكان تاريخها (17 ربيع الأول لعام 1378هـ 1958). وهذا نصها: «إن الإسلام لا يوجب على أحد، من أتباعه إتباع مذهب معين، من المذاهب المنقولة نقلاً صحيحاً، والمدونة أحكامها في كتبها الخاصة، ولمَنْ قلد مذهباً من هذه المذاهب الآن ينتقل إلى غيره، ولا حرج عليه في شيء من ذلك... إن مذهب الجعفرية، المعروف بمذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية مذهب يجوز التعبد به شرعاً، كسائر مذاهب أهل السُنَّة» (علي أحمدي، سلسلة رواد التقريب 2 الشيخ شلتوت).

يصعب على عارف بسيرة حياة إمام الأزهر، في زمانه، الشيخ محمود شلتوت، وما له من باع في التقريب بين المذاهب، وما

تربطه من أواصر صداقة مع المرجع في زمانه حسين البروجردي (ت 1961)، ألا يعتبر مثل هذه الفتوى تحصيل حاصل. وإلا كيف يتم التقارب أو التقريب بين المذاهب، وليس هناك من اعتراف بين رؤساء المذاهب!

يرد القرضاوي بالنفي والإنكار، وأنه فتش مؤلفات شلتوت ولم يجد الفتوى، وكأنه يملك مفاتيح الجنة، وأنه إمام الآفاق زهواً بما يقدمه في برنامج «الشريعة والحياة»! وما أسسه من هيأة إسلامية مسيسة. وبغض النظر عن وجود تلك الفتوى أو عدمها المفترض، فما المقصد من هذا النفي، وأن خلو ما صرح به القرضاوي حتى من أدوات الاحتمال والافتراض، لا يعني سوى التباعد، وبعث الطائفية كلما حاول مصلح تطويقها، وها هي الدنيا تسير إلى غزو ما أبعد من القمر، والقرضاوي يسير بها إلى مواجهات عثمانيين وصفويين!

ألم يجز علماء الحديث أحاديثاً موضوعة إذا كانت الدنيا والدين بحاجتها! ألم يذهب القول المأثور: «اختلاف العلماء رحمة» (رسائل اخوان الصفا)! وأخذها الكثيرون، طمعاً بما فيها من فضاء المسالمة والمعايشة، كحديث نبوي! فلماذا لا يُدعم الرأي القائل بوجود مثل تلك الفتوى الروحانية الجليلة، أو البحث عنها قبل نفيها، وما في هذا النفي من قسوة المعايشة بين أهل الدين الواحد!

أما إذا كان الاعتراف بوجودها، وبوجود الشيعة كأحد أشطار الإسلام، بذريعة إيران ومحاولتها استغلال الوسط الشيعي لإغراض سياسية، فالشيعة لأوطانهم لا لإيران، وما بين مرجعية قم ومرجعية النجف، من خلاف، لا يسد بفتوى! أما يعلم نفاة فتوى شلتوت البيضاء العزيمة، ومنهم الشيخ القرضاوي، أن جماعتهم الأم، إخوان المسلمين بمصر، أقرب كثيراً، من ألوف الشيعة إلى إيران! فهذا عالم من علماء الشيعة الكبار، الشيخ نجيب الدين العاملي (1596 ميلادية) قال قلقاً على عروبته: بعد اتصاله بالصفويين: «ضاعت الأوقات في أرض العجم.. فتدارك بعضها قبل الندم»(مروة، التَّشيع بين جبل عامل وإيران)! كلُّ هذه الأفكار كانت تجول في خاطري، وأنا أرد على منكر رواية اللقاء والمكاتبات بين عميد السَّلفية محمد بن عبد الوهاب وعميد الشيعة الإمامية بالنَّجف.

وأنا استطلع أُصول المباني الطِّينية بمنطقة الدرعية، وأتلمس الأحجار، كم شهدت مِنْ الأحداث، وكم انطلقت منها حوافر الخيل، باتجاهات عديدة، وقد أرادها الإخوان الأوائل أن تكون غزوات متواصلة إلى كلِّ ديار المسلمين. لقد قيل لي إنها واحدة مِنْ خلافاتهم مع الملك عبد العزيز بن سعود، بعد غزوتهم على تخوم العراق مِنْ جهة النَّجف والسَّماوة 1922 وما بعدها، حيث انتهى الخلاف بمعركة روضة السِّبلة الشَّهيرة، التي وقعت في 30 آذار (مارس) 1929.

الدِّرعية حالياً، وإن أشير إليها بالمحافظة، فهي منطقة أثرية ليس إلا، وهناك بساتين يرتادها أصحابها للراحة والمتعة، تخضع الآن لأعمال التَّرميم وتأهيلها كمنطقة أثر، شاهدت الجامع المتواضع الذي كان الشَّيخ محمد بن عبد الوهاب يلقي فيه دروسه، في أحد أزقة المنطقة الخاوية إلا مِنْ الطَّل، ولا يظهر في مقبرتها أي شاهد قبر، بما فيه قبر ابن عبد الوهاب نفسه، لأنها عدم العناية بالقبور والأضرحة عقيدة دينية، كرسها بقوة الشَّيخ ابن عبد الوهاب نفسه، ومازالت المملكة تسير عليها، يتساوى الجميع لحظة الموت، السَّيد والعبد والشَّيخ والمريد. وقيل أول ضريح جرفوه هو ضريح أخي الخليفة عمر بن الخطاب الصحابي زيد بن الخطاب (قُتل 11 هـ)، يؤشر ذلك إلى أنها عقيدة غير موجهة ضد طائفة دون أخرى، سواء اتفقنا معها أم اختلفنا.

يغلب على الظَّن أنه لو عُمل تنقيب تحت أتربة المكان، لوجدت آثار تدل على تلك الفترة الزَّمنية. وإن كانت المنطقة، في ما مضى، تُدار ببساطة متناهية، مِنْ مسجد الشَّيخ وقصر الأمير، وهو ليس كبقية القصور، إنما نشير إليه بالقصر كدار إمارة ليس إلا. لم نجد بالمكان، مِنْ الشِّيوخ أو الشَّباب، مَنْ نسأله عن أثر أو حائط طيني عظيم يمتد إلى الوادي، فالمكان شبه مهجور إلا مِنْ آلات الحفر والأشغال لإعادة إعماره على هيئته الأولى.

السُّعودية عدوتنا!

ما حملته ذاكرتي مِنْ سلبية، تراكمت عبر القراءة والسّماع، عن المجتمع السُّعودي بشكل عام، الرَّسمي والشَّعبي، غدا مِن المسلمات فقد تعودنا التَّعميم في الظَّنون والاعتقادات، وأخذ المكان فيها بالكامل غير مجزأ، دون رؤية فجوة أخرى تخالف ما نظنه أو نعتقده.

فلسَّنوات طوال كانت الصُّورة أن كلَّ سعودي، مهما كانت هويته، في أذهاننا هو المتشدد الذي يُكفِّر الجميع، وهو ما ينعكس ذلك على سلوكنا تجاه هذا المجتمع. لم تختص تلك الصُّورة بالتَّشدد الدِّيني أو المذهبي إنما السِّياسي والفكري أيضاً، لذا كنا نستغرب، بل نفهمها مفارقة، أن يتحدث سعودي ضد السَّائد المذهبي والتَّشدد، وضد ديمومة وإيقاد الخلاف الفقهي إلى حد الكراهية، هو بلاشك مِن فعل الأطراف كلها، مع اختلاف الدَّرجة.

إن تجربتنا السِّياسية والعقائدية الحزبية جعلتنا ننظر بعجب إلى سعودي اتخذ مِنْ اليسار عامة، أو الاشتراكية، على

وجه الخصوص، مذهباً فكرياً، لذا كنا نعتبر اليمن الدِّيمقراطية، حيث مدينة عدن الاشتراكية، تقف مقابل السُّعودية الرَّجعية وليدة القوى الاستعمارية. وأي شيء يحصل داخل عدن الثَّورية نرده، بلا تقصي، إلى فعل سعودي، مهما كان ذلك الفعل.

أتذكر عندما حصل الخلاف بين قيادات الجبهة القومية التقدمية - التنظيم الموحد بعدن (صيف 1978)، الحزب الاشتراكي في ما بعد، كنا بأقصى جنوب العراق مجموعة مِنْ الشَّباب الذين يجمعهم اليسار مِنّ الملتزمين تنظيمياً في الحزب الشِّيوعي العراقي أو أصدقائه ومؤيديه، نحتفل بنجاح جناح عبد الفتاح إسماعيل (قُتل 1986)، أمين عام الجبهة القومية التَّقدمية آنذاك وأكثر الماركسيين عقائدية، فكان ثقة لدى اليسار العراقي إلى أبعد الحدود.

لكن أهزوجة احتفالنا كانت هتافاً ضد المملكة العربية السُّعودية، وحتى مِنّ دون أن تذيع إذاعة عدن أي خبر أو تسرب أية معلومة مباشرة أو غير مباشرة، حينها ردد شاعرنا الشَّعبي، الذي كان يحتفل معنا مجيد جاسم الخيُّون (ت 1994) ونحن نهزج وراءه: «اشعدها أدور وتلف السُّعودية.. ما تسقط حكومة عدن ثورية»، والمعنى على ما أظن واضح لدى أهل نجد والحجاز!

بعد أكثر مِنْ عام (نوفمبر 1979) حللنا بمدينة عدن هروباً مِنّ قسوة النِّظام العراقي السَّابق ومطاردته، عبر طرق ملتوية،

فوجدنا هناك كثافة أمنية ومخابراتية ضد الأجانب الدُّبلوماسيين، مِنْ العواصم غير الصَّديقة، وفي مقدمتها الرِّياض، لكن الظُّروف بين عدن والرَّياض تبدلت في ما بعد كثيراً، حتى خُص المغتربون اليمنيون المتحدرون مِنْ اليمن الدِّيمقراطية بتفضيل، وكان الغالب منهم مِنْ حضرموت.

ضمن الندوات التي كانت تعقدها جامعة عدن، العام 1982 أو 1983، عُقدت ندوة للإعلامي الكويتي الدُّكتور محمد الرُّميحي، ولما شق طريقه، وهو يعتمر العقال والكوفية (الشماغ) والدِّشداشة البيضاء، أُشيع بين الحضور أن معه أحد أفراد السَّفارة السُّعودية بعدن، أو ضيفاً سعودياً. نوقش الرُّميحي كثيراً على الموقف الخليجي عموماً مِنْ اليسار، والعلاقات الخليجية اليمنية الجنوبية، وحينها قمتُ متحمساً وسألته بما يغمز مِنْ قناة السُّعودية، على الظَّن أن أحد أفراد وفده كان سعودياً، قلت له وبلغة خارجة عن المنطق قياساً بمنظورنا اليوم بعد المرور في تلك التَّجارب، مستغلاً وجوده بجامعة عدن، وكانت عدن قلعة الماركسية بالمنطقة، وما يوفره لي المكان مِنْ حماية وحرية الكلام ضد الخصم.

قلت له: السُّعودية لثرائها تستطيع أن تقول للشَّيء كن فيكن! فلماذا سبقتها بلغاريا الاشتراكية في الصِّناعة والزِّراعة والتَّقدم

مِنْ النواحي كافة، وهي بلاد لا تملك عُشر ثروة السعودية؟! استحسن الحضور السُّؤال، وحسبه سؤالاً محرجاً، لكن الرُّميحي شعر باللهجة وما المراد مِنْ السُّؤال، فرد بهدوء أخجلني حينها. قال: شكراً للأستاذ بشير (لم يسمع اسمي جيداً مِنْ مدير النَّدوة الأستاذ فضل على ما أتذكر)، صحيح أن بلغاريا متقدمة ومتطورة، لكن كما تعرف السُّعودية بلاد قبائل وعشائر، ولا تأصيل فيها لصِّناعة أو مَدنية، وهي دولة جُمعت مِنْ الصَّحراء! ولم يزد على الجواب! وبعد نهاية النَّدوة قفز أحمد الحمزي أحد طَّلبة قسم الفلسفة آنذاك ومِن الحزبيين اليمنيين، إلى المنصة واستل كاسيت التَّسجيل، قال لي الحمزي بعدها: أخذتُ الكاسيت حتى لا يقع بيد رجل السَّفارة السعودي، لأنه حاول سله مِنْ جهاز التَّسجيل، وأردف قائلاً: نحن لسنا مغفلين!

إن فكرة تخلف السعودية على أنها بلاد بداوة كانت ثابتة في رؤوسنا، مِن دون أن نحسب حساب الزَّمن والتقدم الذي أصاب ذلك المكان وسكانه، وربما صار اتصالهم بالغرب وحضارته وتمدنه أقوى منا بفعل الحروب والحصار الذي قطعنا عن العالم لفترة غير قليلة. فهذا وزير الداخلية الأسبق باقر جبر صولاغ بسبب خلاف دبلوماسي أو تصريح لوزير الخارجية السعودي بخصوص العِراق لم يتأخر مِن القول عبر وسائل الإعلام (2006): «احنه ما يعلمنا الجاي مِن وراء البعير». لكن هذا الجاى مِن وراء بعير

يعرف أكثر من لغة، ويُعد مِن عمداء الدبلوماسية العربية، فهل يجوز التعامل معه بهذا المنطق، وتلك العقلية الجامدة؟!

كذلك أن البعير بدأ يتبدل بطائرات وسيارات فارهة منذ العشرينيات هناك. وهذا عين ما كان يقوله بعض خصوم الملك فيصل الأول (ت 1933) أنه جاء على بعير ويعود على بعير إلى الحجاز، هذا ما كنا نسمعه مِن أفواه النّاس.

وأن أحد الشُّعراء الشعبيين الهازجين بما يُسمى بالهوسة أراد انتقاد الحكومة في العصر الملكي (1921 -1958)، وهي تحضر ممثلةً بأحد المسؤولين الكبار تشييع دبلوماسي بريطاني وافاه الأجل ببغداد، على اعتقاد أن بريطانيا سرقت الخزينة العِراقية وأموال العِراق، فلم يجد مثالاً إلا السعودية كدلالة على استحالة تطورها. قال: «على حجلة وبعيرة اتطور ابن سعود... واحنا شما تطورنا نرد اردود.. خزينتنا اليجيها يكعد إلها أكعود... شلون تشيع الميت خزنة وراحة بالتابوت» (هوسات عراقية، هاشم العقابي، عن جريدة العالم البغدادية).

لكن اتضح في ما بعد، ليس هناك بين الحضور سعودي، لا مِنْ السَّفارة ولا مِنْ خارجها، والمحاضر ومرافقيه مِنْ أهل الكويت كافة! عرضت هذه القصة لتوضيح مدى التَّشنج النَّفسي المبالغ به آنذاك، وأجد الصُّورة نفسها عند الطَّرف الآخر، الذي كنا

نشير إليه بالرَّجعي، أيضاً كان يبالغ بخصومتنا، ويصفنا بالأشرار والمبتذلين كفكر وممارسة، وأن عدن بماركسيتها كانت بلاد الجوع. حتى سمعت مِنْ أحد السُّعوديين المعتبرين أن العدنيين كانوا تحت حكم الحزب الاشتراكي اليمني لا يميزون بين البصل والتُّفاح بسبب نظامهم الاشتراكي! وهذا ليس دقيقاً، مع ما كانوا يعيشونه مِنْ أزمات إلا أن الأسعار ظلت مدعومة مِنْ قبل الدَّولة، والأمن مبسوط في عِرض البلاد وطولها، وكم هم الآن يحنون إلى أي يوم عاشوه قبل الوحدة (22 أيار 1990) مع الشِّمال.

وكنا كثيراً ما نسمع مِنْ الإذاعات المعادية لعدن، العربية والأجنبية، أخباراً عن إغلاق المساجد. ويوماً سمعنا المذيع يُذيع خبر إغلاق مسجد العيدروس، وسط عدن، ونحن على مقربة مِنْ المسجد، وكان مفتوحاً يدخل ويخرج منه المصلون يوم الجمعة وفي الأيام الأُخر، لكن السُّلطة العدنية كانت خانقة الإسلام السِّياسي، الإخوان المسلمون وتحت أي عنوان، وكانوا لا يميزون بين الوهابيين والإخوان المسلمين بشكل عام. وبهذه الجريرة حدثت تجاوزات على المتدينين مِنْ غير الحزبيين أو النُّشطاء الإسلاميين.

لم يكن القلق السُّعودي إزاء اليسار العراقي خالياً مِنْ الظُّنون الشُّبه مؤكدة، حتى شاع بيننا أن مهمة زيارة الوفد السُّعودي الرَّفيع

شتاء 1975 كانت تتعلق بطلب تحديد نشاط الشِّيوعيين العراقيين وتأثيرهم على المنطقة. وصل الوفد بغداد، وعلى رأسه كان ولي العهد آنذاك الأمير فهد بن عبد العزيز (ت 2005)، استقبله بمطار بغداد نائب الرَّئيس صدام حسين (أُعدم 2006).

كانت السَّماء مطيرة فاستقبل الوفد بالمظلات، مثلما شاهدنا ذلك عبر شاشة التَّلفزيون. كان الهمس بيننا أن هدف الزِّيارة هو تحجيم الحزب الشِّيوعي العراقي، والعمل على فرط عقد الجبهة الوطنية بينه وبين البعث الحاكم (عُقدت 1973 وانفرطت 1979)، تلك تصوراتنا الخاصة وأحاديثنا المتبادلة، نطرحها في جدلنا المستمر، لا شأن لتنظيم حزبي بطرحها.

مِنْ دواعي تلك التَّصورات أننا كنا نلاحظ شباباً خليجيين يترددون على المدرسة الحزبية؛ التي افتتحها الحزب الشُّيوعي العراقي سراً داخل بناية لجنته المركزية بمنطقة الأندلس وسط بغداد، على ما أتصور، في أواسط السبعينيات، مِنْ القرن الماضي، حيث يدرسون الماركسية اللينينية والتَّنظيم الحزبي مع عراقيين. كذلك كثيراً ما تعرف العراقيون الشِّيوعيون على عناصر مِنْ الخليج يدرسون معهم بمدارس الدُّول الاشتراكية الحزبية، لإعدادهم للتَّنظيم الحزبي ككوادر فاعلة.

وما أورده الرَّجل الثَّاني، آنذاك، في قيادة الحزب الشِّيوعي العراقي السَّيد باقر إبراهيم، مسؤول الدائرة التنظيمية، أضاء

لي ما كنت ألمسه مِنْ مشاهدة كوادر حزبية تأتي مِنْ الخليج، وما كنا نعلمه مِنْ دور للحزب الشِّيوعي في تأسيس أحزاب ماركسية بالخليج عموماً، وما يخص العمل على تأسيس حزب شيوعي مِنْ اليساريين السعوديين بالذات.

قال باقر إبراهيم في مذكراته: «في عام 1974 عرضت عليَّ قيادة الحزب الشِّيوعي العراقي أن أقوم بدراسة مشروع البرنامج والنظام الداخلي الجديد؛ الذي بموجبه تتجه النِّية لإعلان قيام الحزب الشِّيوعي في السُّعودية، وكان ذلك بطلب مِنْ جبهة التَّحرير إلى حزبنا. درستُ المشروعين، وقدمت مطالعة بملاحظاتنا عليها. وللأسف فإني لا أستطيع الحصول على شيء مِنْ تلك الوثائق».

والكلام مازال لباقر إبراهيم: «لكني أتذكر جيداً فحواها. فقد توصلت إلى رأي بأن ما يناسب المناضلين الماركسيين والتَّقدميين، وقوى اليسار في المملكة العربية السُّعودية، هو البقاء على الاسم القديم أو محتواه، أي جبهة أو حركة تحررية وطنية في السُّعودية، وأن تهتم بالمطالب الجماهيرية، وحتى بالدَّعوة للإصلاحات مِنْ أجل التَّغيير، وأن لا تندفع وراء الشِّعارات الثَّورية المتطرفة، أو المباشرة، أو المواجهة الحادة مع النِّظام مما يزيدها عُزلة، وأن لا تبتعد عن الواقع الاجتماعي والدِّيني، ومستوى

الثَّقافة العامة في البلاد، إضافة إلى ضرورة الإفادة بأفضل ما يمكن مِنْ المؤسسات، والمجالات العلنية والشَّرعية في التَّنظيم، والتَّعبئة، والنَّشر في الصَّحافة» (مذكرات باقر إبراهيم، ص 196 وما بعدها).

وحسب باقر إبراهيم، فإنه مع إقرار الحزب الشُّيوعي العراقي لملاحظات عضو مكتبه السياسي، ومعارضته لتَّأسيس الحزب الشُّيوعي في السُّعودية، عُقد مؤتمر الجبهة وأعلن قيام الحزب الشُّيوعي بالمملكة، وذلك في 31 آب (أغسطس 1975). وهذا ما أكده لي عضو المكتب السِّياسي السَّابق الحقوقي عبد الرَّزاق الصَّافي عندما سألته عن ذلك.

لكن الدُّنيا قد تغيرت، حضرت العمائم السُّود إلى الجنادرية، وجالسوا علماء السُّعودية في جولات حوار، وأخذت فجوة الخلاف بين المذاهب تضيق، إلى درجة القبول بالحوار، وأن علماء دين سلفيين انتقدوا مَنْ أراد استفزاز الشِّيعة بالإساءة لعلمائهم، تجد علماءً مِنْ الشِّيعة يستنكرون ما يسيء إلى ثوابت المذهب الآخر، وما جاء في الرَّد على مَنْ يريد الإساءة إلى أم المؤمنين عائشة (ت 58 هـ)، في ممارسة تحت عنوان «عائشة في النار» كان واضحاً.

كذلك ارتضى أهل اليسار، أولئك أصحاب الميل الثُّوري، بالحوار، والإصلاح الهادئ، وعادوا إلى دولهم الخليجية. هذا ما

لاحظته أيضاً في موسم الجنادرية، وشتان بين 1975 و2010، فالزَّمن رمح يسير بلا عودة إلى الوراء. فعلي سالم البيض وسالم صالح محمد - كانا مِنْ أكبر أحبار الحزب الاشتراكي اليمني بعدن - الأول أمينه العام والثَّاني أمينه العام المساعد- استقبلتهم الرِّياض السُّعودية الرَّجعية، بل وحاولت تقف مع حزبهما قبل وبعد حرب صيف 1994 اليمنية، وإن شخوصاً مِنْ اليسار السُّعودي جلسوا متحدثين على منصة ندوات الجنادرية. لست معنياً بالإجابة لماذا وما هي المصالح، لكن الوصول إلى هذه النُّقطة يعني هناك تبدلاً كبيراً في النُّفوس، وفي عوالم الأفكار والأيديولوجيات. إنه تبدل الزَّمن وفعله.

في افتتاح الجنادرية

كنت أجلس، في حفل افتتاح الجنادرية، بمحاذاة أحد العارفين بتاريخ الإخوان القدماء، ومِنْ الباقين على ذكرياتهم في شيوع تلك الصَّحوة، وبالطَّريقة نفسها، وهو أستاذ جامعي على ما أتذكر، فلما ظهر أوبريت الجنادرية، والإضاءة والإيقاع الموسيقي، ومشهد كان تسجيلاً، ليس حياً، لنِّساء، التفتُ إلى هذا الرَّجل، وسألته، مِنْ دون سابق معرفة، هل كان الإخوان الأوائل يسمحون بهذا المشهد، حيث كان الملك عبد العزيز يعاني منهم إذا ما أراد مدَّ تيار الكهرباء أو أسلاك التلفون؟!

كانت معلوماتي هذه مستقاة مِنْ كتاب الباحث السُّوسيولوجي العِراقي المعروف علي الوردي (ت 1995) «لمحات اجتماعية مِنْ تاريخ العراق الحديث» (الجزء السَّادس الأشراف وابن سعود). إلا أن الأستاذ الجامعي قال مفصحاً عن وجهة نظره: ليس الخلاف مع الملك عبد العزيز على هذا، إنما كان طلباً لاستمرار الدَّعوة، وعدم التَّوقف بحدود إنشاء مملكة، أي الامتداد إلى بقية البلاد

الإسلامية، لإعادة أمجاد الإسلام الأول، والتحرير مِنْ الشُّرك! وأنهم لم يقاتلوا مع عبد العزيز ليكوُّن مملكة! كان الرَّجل دمث الأخلاق يجيبني عن الصَّغيرة والكبيرة، وبفضله تعرفت على اختلاف أزياء الملابس بين مناطق البلاد، الجبلية والصَّحراوية والسَّاحلية، عندما يظهر الفنانون ممثلين لتلك المناطق.

أعدُّ وجود هذا العدد مِنْ مثقفي المنطقة الشَّرقية، القطيف والأحساء، أي ممَنْ أغلبهم على المذهب الشِّيعي مِنْ مواطني المملكة، عادياً، لكن بعد النَّقاش مع الآخرين تبين أنه لم يكن هكذا في مواسم الجنادرية السَّابقة، إنما على ما يبدو له صلة بالسياسة الجديدة، وكذلك بالمناسبة كونها الموسم الفضي، أي مرور ربع قرن على انطلاقها. تعرفت على الباحث محمد رضا نصر الله مِنْ قبل، حيث كان اللقاء الأول به بلندن، في أواسط التِّسعينيات، مِنْ القرن الماضي، وتعرفت خلال المهرجان بالشَّاعر محمد الجلواح، والكاتب جهاد بن عبد الإله الخنيزي وغيرهم.

حدثني الشَّاعر الجلواح عن صلات القربى لهم بالبصرة، وما كانوا يمدون به مِنْ دعم لأقاربهم مِنْ العِراقيين أيام الحصار الذي فرض على العِراق لفترة طويلة(1991 -2003)، وأهلك الزَّرع والضَّرع، حتى غدا مثلما نرى ونسمع، وكيف تسلطت عليه الخرافة، وكاد يخلو مِنْ وشلة ثقافة، بينما كان بلداً مؤسساً للثَّقافة والحضارة على مستوى الإنسانية.

ألقى الشَّاعر جاسم الصَّحَيِّح قصيدة بالفصحى في افتتاح المهرجان، فتذكرنا إلقاء ونَفس الشَّاعر العراقي، صاحب العِمامة السوداء، مصطفى جمال الدِّين(ت 1996). كانت القصيدة شديدة الوقع على الجمهور لقوة بنائها الشَّعري، ولإلقاء الشَّاعر المتميز، وعلى الرَّغم مِنْ طولها، إلا أن الجمهور استمر منفعلاً معها، ومقاطعاً الشاعر بالتَّصفيق بين الفينة والفينة. كنت ألمح، عبر الشَّاشة الكبيرة الحجم علامات السَّعادة على كبار الأمراء، حيث يجلس الملك وبضيافته ملك البحرين حمد بن عيسى آل خليفة.

كان الشَّاعر ذكياً عندما أشار في قصيدته الجديدة، في مهرجان الجنادرية الخامس والعشرين، إلى قضية الحوار، فمما جاء فيها مخاطباً الملك عبد اللّه بن عبد العزيز، وكان يلقيها بحضرته، وما سجلته منها سريعاً الأبيات الآتية:

وفسحت عصركَ كي تسير بأُمةٍ
كادت على أبوابه تنهارُ

وسقيتها ماءَ الحوارِ كأنه
مِنْ بئر زمزمَ كوثرٌ خوارُ

ألفَ الحياة ضريرةً فأعَادها
بصراً به تتنور الأبصارُ

لم انتبه إلى تقديم الشَّاعر، مِنْ قبل عريف الحفل، لذا سألت صاحبي الأكاديمي الجالس بجانبي عن هوية الشَّاعر، ومِنْ أي بلدة، فقال: أظنه أحد الأمراء مِنْ الشُّعراء! وما زاد تصديقي لتوهم الرَّجل، أن الشَّاعر لما نزل سار إلى حيث يجلس الملك ومرافقيه، بعد أن انطلق به الشَّيخ عبد المحسن التَّويجري، نجل الشَّخصية المعروفة الشَّيخ عبد العزيز التَّويجري (ت 2007)، وكيل رئيس الحرس الوطني السُّعودي، إلى الملك عبد الله بن عبد العزيز، وشاهدته ظل قائماً إلى جانبه.

لم يُصحح هذا التَّصور حتى رأيت الشَّاعر في اليوم التَّالي وسطنا ببهو الفندق، وقدم نفسه لي على أنه مِنْ المنطقة الشَّرقية، وأنشدني ما كان يحفظ مِنْ شعر شعبي عراقي: الدَّارمي أو الأبوذية على ما أذكر، لذا أخبرته بما حدث، وبأني ظننته أحد الأَمراء، وحينها ضحك وقال: «هل تبدو عليّ علامات الإمارة»!

بعدها ألقى الشَّاعر الشَّعبي (النَّبطي بلغة أهل الجزيرة) خلف بن هذال، وهو برتبة لواء في الحرس الوطني، قصيدةً فهمت منها الكثير، ولم استطع الحفظ أو تدوين شيء منها سوى مطلعها. وما استرعى التفاتي غير حماسة الشَّاعر، وإلقاؤه المثير، وحركات جسمه المسرحية، فتراه ينزل ويصعد بقامته القصيرة بحيوته مع كل بيت، إلا أن التَّصفيق إعجاباً بفقرة مِنْ فقرات القصيدة

أربك الشَّاعر، فتأخر برهة مِنْ الزَّمن، وهو يرفع يده كأنه يحاول اخراج الكلام مِنْ بئر ذاكرته، حتى بان على الجمهور الذُّهول. فخلف بن هذال، حسب ما قيل لي، يقرأ قصيدةً جديدةً في كلِّ موسم مِنْ مواسم الجنادرية، ولم يحصل أن خانته ذاكرته في يوم مِنْ الأيام، وهو لم يستعين بورقة يحملها بيده للطوارئ، مثلما فعل جاسم الصَّحَيِّح، مع حفظ الأخير لقصيدته عن ظهر قلب، لكنه بين الحين والآخر يستعن بورقته التي بيده لطوارئ النِّسيان.

حاولت تسجيل ما ألقاه الشاعر هذال إلا أني لم أتمكن مِنْ متابعته، لاختلاف اللهجة وسرعة الإلقاء وحماسته، واكتفيت بتدوين المطلع، الذي قال فيه: «التُّراث أمجادنا بالفخر ودا وجاب.. مَنْ تخلى عن تراثه عليه مسجلة»! وكان المستهل إشارة إلى احتفالية الجنادرية على أنها خاصة بإحياء التُّراث الشَّعبي السُّعودي.

أثار مشهد ظهور النِّساء، عبر الصُّورة ، نقاشاً جاداً في مسألة المرأة، داخل الاحتفال مع مَنْ كان يحاذيني ويبادلني الحديث، وبعد العودة إلى الفندق! واستغرابي مِنْ ظهورهنَّ عبر الصُّورة ردَّ عليَّ أكثر مِنْ مثقف سعودي قائلاً: إنها خطوة كبيرة إلى الأمام، وبادرة جريئة، ففي مواسم الجنادرية السَّابقة ما كان ذلك ليحصل ! عندها قدرت الحركة النَّهضوية داخل المجتمع

السُّعودي. هناك مَنْ حصر هذه البادرة وغيرها مِنْ بوادر النُّهوض إلى شخص الملك عبد الله بن عبد العزيز، وآخر فسرها أنها حركة التاريخ، وقد حان الوقت أن تجد محركها والنَّاهض بها. هنا قفزت إلى ذهني مقالة أو عبارة: «النَّاس على دين ملوكهم».

مِنْ قبل تقصيت أصل المقالة، فوجدتها مِنْ الأقوال المأثورة، التي لا يُعرف شخص قائلها، «النَّاس على دين ملوكهم»، مثلما أوردها المؤرخ ابن الطَّقطقي (ت 708 هـ)، و«النَّاس على دين الملك» مثلما جاءت عند المؤرخ ابن خلدون (ت 808 هـ)، وذكرها كثيرون مِنْ غير هذين العلمين. وقد حاول ملك العراق فيصل الأول (ت 1933) عند وصوله إلى العِراق التَّحبب لأهله، والنُّزول عند رغباتهم عندما قال في خطاب التَّتويج (أغسطس 1921): «الملوك على دين شعوبهم، فعلى قدر التَّضامن يكون النُّهوض». لكن الأمر بالتأكيد ما كان ليجري هكذا، ويُعلن الحوار والانفتاح الفكري، لولا وجود ملك يشجع على ذلك، لذا تكون العبارة الأولى أكثر واقعية.

عند العودة مِنْ الحفل رغبت بالجلوس إلى جنب الشَّيخ الفقيه العراقي أحمد الكبيسي، وهو رجل معروف، وكان مِنْ أوائل، إذا لم يكن الأول، مَنْ دعوا إلى تشكيل هيأة علماء المسلمين بالعراق (2003)، ومِنْ أوائل العائدين بعد سقوط النِّظام. يرى الذين

يستمعون إلى أحاديث الشَّيخ الفقيه الكبيسي، مِنْ فضائية «دبي»، بأنه متنور ومنفتح ومجدد، بمعنى أنه ينطلق مِنْ قضايا المجتمع المعاصرة، كان هذا التَّصور، الذي أحمله عن الشَّيخ، سبباً لحواري معه مسافة الطَّريق مِنْ قرية الجنادرية وسط الرِّياض إلى الفندق. عرفته بنفسي، ولم يكن عرفني، على ما يبدو مِنْ قبل.

إلا أنه تبسط معي عندما لحظ اهتمامي بتاريخ الأديان والمذاهب، وما كنت أعلنه مِنْ إعجاب خاص بالإمام أبي حنيفة النُّعمان (ت 150 هـ) منذ زمن طويل، على اعتقاد مني أن لدى هذا الإمام ما يساير العصور، وما يضمن التَّعايش في المجتمعات المختلطة، وما يجمع بين الإسلام والمَدنية، ويحمي الدِّين والدُّنيا مِنْ آفة التَّشدد أوالتَّزمت.

قال الشَّيخ الكبيسي: إن الدِّين، مثلما ترى، أصبح شبه بضاعة عند الكثير مِنْ الرِّجال، وإن هذا التَّشدد والإرهاب هو صناعة دخيلة على الدِّين، وإن التَّدين الصَّحيح هو الذي يساير التَّطور والعصر. إن الدِّين ليس صوماً وصلاةً ولا هو مرهون ببقية الطَّقوس، إنما هو حرية الفرد في الاختيار والعبادة، أُعبد الله كما تشاء، فالحكمة هي روح الدِّين لا هذه المظاهر، والدِّين هو المعاملة.

سألته عن سبب مغادرته العراق بعد عودته إثر سقوط النِّظام مباشرة! قال: هكذا أرادت أمريكا، الأمريكان هددوني

لأنني لم أجاريهم في يسعون إليه ويضمرون للعراق وشعبه، كذلك لعب آخرون، مِنْ العِراقيين، لعبتهم ضدي! هكذا قالها، وهو يؤمن أن ما حدث للمسلمين والعراق كان مخططاً مرسوماً مسبقاً، مِنْ قِبل الغرب وأمريكا، بداية مِنْ أفغانستان، والتَّنفيذ مازال جارياً.

حوار في التَّجديد

كلُّ ما سمعته مِنْ المثقفين السُّعوديين أن هناك خطوات نهضوية، وهي كبيرة في مجتمع مثل المجتمع السُّعودي، مِنْ محاولة إعطاء المرأة دورها في الحياة، خصوصاً أن رياح التَّغيير تهب إن لم تعصف بالعالم بأسره، والمملكة ليست خارج هذا العالم، وعدم ترك المثقفين عرضة للتَّكفير والمنع، والبدء بإصلاح الإدارة والتَّعليم، وإيجاد جامعة مختلطة، والحفاظ على التُّراث بالاهتمام بالآثار، والإكثار مِنْ البعثات الدِّراسية، ورفع الحظر عن النَّقد الصَّحفي والإعلامي، وإقامة الحوار الصَّريح على صفحات الجرائد كلُّ ذلك كان بجهود الملك عبد الله بن عبد العزيز، وهنا تكون مقالة أو عِبارة النَّاس على دين ملوكها أكثر صحة مما أراده ملك العِراق للتقرب إلى قلوب النَّاس.

عقّب أحد الأشخاص في إحدى الجلسات التِّلقائية، في صالة الفندق، أن يجري وفق حركة التَّاريخ، وأن الملك تفهم هذه الحركة وتطورها وموجباتها، وتفحص المدى الدُّولي، الذي ترتبط

به مملكته، لذا اغتنم الفرص ولم يفوتها، والمعقب هو ما سماه أحد الرُّوائيين السُّعوديين بالشِّيوعي الأخير، وسيأتي الحديث عنه. على أية حال كلُّ الآراء صحيحة. أما الآراء التي طرحت للحوار، في أكثر مِنْ جلسة، فكانت حول حركة التَّجديد الدِّيني، السُّنِّي منه والشِّيعي، على اعتبار أن الحضور مِنْ المثقفين تحدروا مِنْ الطَّائفتين. أقول تحدروا لأني لم ألمس اهتماماً أو حرصاً مِنْ أحد بهذا النَّسب، وحيث يجب أن يتبرأ المثقف مِنْ لوثة ذلك الخلاف أو بالأحرى الصِّراع العقيم والمدمر.

بعد الخوض في ما قدمه أعلام التَّجديد دلوت بدلوي في ما يخص التَّجديد عند علماء الشِّيعة، على ضوء ما كتبته في كتابي «المشروطة والمستبدة» (2006)، عندها سألني الباحث محمد رضا نصر الله إن كنت قد اطلعت على كتاب الباحثة الفرنسية صابرينا ميرفان! ولما أجبته بالنَّفي، لجهلي لم أقرأ شيئاً لهذه الباحثة، قال: إن لها بحثاً ممتازاً في موضوع التَّجديد الشِّيعي مترجماً عن الفرنسية، بعنوان «حركة الإصلاح الشِّيعي.. علماء جبل عامل وأدباؤه مِنْ نهاية الدَّولة العثمانية إلى بداية استقلال لبنان».

على الرَّغم مِنْ حذري مِنْ الباحثين الغربيين في أمر الطَّوائف الشَّرقية، على وجه الخصوص، إلا أن ثناء نصر الله

على الكتاب جعلني أبحث عنه، فسألت الصَّديق مصطفى فحص، نجل الفقيه والأَديب السَّيد هاني فحص، ووعدني أن يبعثه لي مِنْ بيروت إذا وجده، وقد قبل مني ملاطفتي له بالقول: صحيح أنتم تعودتم الأخذ مِنْ الخمس والزَّكاة، لكن هذه المرة إدفع الخمس لي ولو لمرة، وهو شراء وإرسال هذا الكتاب مِنْ بيروت! وقد اعتدنا بالعِّراق نلاطف أصحاب العمائم مِنْ ذوي النُّفوس المنفتحة والمرحين، وهم كثر.

أتذكر أن والد مصطفى السَّيد هاني دعاني العام (2008) للمشاركة في الحوار الإسلامي المسيحي ببيروت، وهذا الرَّجل أنعم الله عليه بسرعة البداهة والنكتة والمرونة في الحوار حتى مع أشد النَّاس تعصباً، ولا يحجبه اختلاف العقائد عن الآخرين مهما كانت عميقة، فلما سألته ملاطفاً وماهي هي حقوق المشاركة! أجابني مباشرة: هل خَمست أم بعد! أي هل دفعت الخمس! وبهذه الحالة هو الذي يُطالبني بالحقوق لا أنا!

لكن في اليوم الأخير مِنْ المهرجان قدم لي الباحث محمد رضا ظرفاً، وصندوقاً فيه شيء ثقيل، وقال ستجد فيه مفاجأة، وإذا بكتاب صابرينا مع إهداء سخي بقلمه، أما الصُّندوق فكان علباً مِنْ التَّمر الأحسائي خصني به لعلمه أن نشأتنا كانت على التَّمر والسَّمك، حيث أهوار جنوب العراق.

بعدها بأكثر مِنْ شهر حصل أن ألتقيت بالباحثة صابرينا، في مناسبة ثقافية بلندن، وحدثتها بقصة حصولي على كتابها، وأنها ساهمت في تغيير نظرتي إلى ما يكتبه الغربيون حول طوائف منطقتنا، وكنت احسبها لبنانية الأصل، إلا أنها فرنسية تعلمت العربية مِنْ أجل اطروحتها الأكاديمية، وهي كتابها المذكور. سرها كثيراً أن يتداول كتابها داخل السُّعودية وتتلقفه أيدي الباحثين.

اسقط الكتاب هواجسي مما غلب على ظني في ما سأقرأه لباحثة غربية؛ في أمر الطَّوائف والعقائد، وبالفعل كان كتاباً نفيساً، التزمت فيه بكلِّ شروط البحث العلمي، ولم تترك زاوية مِنْ زوايا الحركة الإصلاحية، مِنْ ناحية التَّجديد في أمر العزاء الحسيني، وما يحدث مِنْ ترهات في تأديته، أخذت تشتد في الآونة الأخيرة. وفي أمر الدِّراسة في الحوزات الشيعية، وفي ما يتعلق في التَّقريب بين السُّنَّة والشِّيعة.

فالكتاب يكشف عن جنود مجهولين، مِنْ غير المعروفين، سخروا جلَّ حياتهم مِنْ أجل التَّجديد والإصلاح، والتَّعايش السَّليم بين الطَّائفتين، وتحملوا تعنت المتزمتين وتحجرهم الفكري والفقهي، حتى هُددوا بحياتهم وبأرزاقهم، وكان أبرز هؤلاء مجتهد الشَّام السَّيد محسن الأمين (ت 1952).

في إحدى الجلسات وصل الدكتور حمزة بن قبلان المزيني، أستاذ اللسانيات بجامعة الملك سعود، يسأل عني، وقد سرني جداً

حضوره وسؤاله، وكأنه صديق حميمم مِنْ عدة أعوام، وذكرني أنه قرأ لي مقالة تحت عنوان «الوضوء بالدَّم»، كنت نشرتها على صفحات جريدة إيلاف الألكترونية العام 2004، واستشهد بها في إحدى مقالاته يوم كانت السُّيوف تقطف رؤوس العراقيين، في فورة عنف مريعة، وأن الدُّكتور المزيني حريص أن ينهض مثقفو المذاهب ويتعاونوا ضد التَّعصب المذهبي، وضد الطَّائفية حصراً.

كنت سمعت بقضيته مع المحكمة والحكم عليه بالجلد، إلا أن سماعها منه شخصياً كان لها وقع خاص. قص حكاية أخذه بسبب مقالة كتبها، وكادت تُنفذ به العقوبة المريعة، والشَّديدة على مثقف وأكاديمي مثله، مِنْ قبل الفقهاء القضاة، إلا أنه نجا منها في آخر لحظة بالتَّدخل السَّريع، مِنْ قبل المتنورين، لدى الملك عبد الله بن عبد العزيز، فأوقف العقوبة وكلُّ ما اتخذ ضده، وبذلك احتفظ أساتذة الجامعة عبره بكرامتهم التي كادت تُهدر بالجلد، بسبب مقال أو كلمة.

وأنا بالرِّياض قرأت في الصُّحف السُّعودية قراراً سامياً يقضي بالفصل في القضايا الثَّقافية مِنْ قبل وزارتها وليست المحاكم الشَّرعية، وبهذا القرار والانتفتاح الواضح المعالم اعتبر الملك نصيراً للمثقف والثَّقافة، وأن هامش الحرية بدأ يتسع، لكن دون قفز على الواقع، أو خلل في الثَّوابت، الذي قد يضر أكثر مما ينفع.

الحرب هي الحرب

حضرت ندوة الحوار مع الغرب، أو بين الثَّقافات، وكان أحد أبرز المتحدثين السُّعوديين الشَّيخ سلمان العودة، وقد سمعت عنه أنه تحول تحولاً كبيراً صوب الاعتدال، وتبنى مواقف واضحة ضد التَّشدد الدِّيني، ونبذ العنف، ونقد الجماعات المتطرفة، حتى غدا مدرسة لها ملامحها في هذا المجال داخل المملكة، ويشار إليه بالبنان كلما جرى الحديث عن التَّشدد وطلب التَّغيير.

استهل الشَّيخ كلمته، في موجبات الحوار، بعبارة: «أن الحرب في الإسلام مِنْ أجل الحوار»! عندها ترددت في مناقشته على ما سمعتُ، وذلك بضغط الرَّأي، أو التَّصور، المسبق الذي كان لديّ عن المجتمع السُّعودي، وعن قوة رجل الدِّين وهيمنته فيه، وكيف يمكن الردُّ على شيخ له كلُّ هذه المنزلة! إضافة إلى أن نقض مقولته تلك قد يقودني إلى إحراج أصحاب الضِّيافة، وهم كانوا مِنَ الودِّ والدَّماثة ما يخجل أن أعرضهم لموقفٍ مثل هذا.

إلا أني عزمت على التَّعقيب، بحدود الأدب وحفظ منزلة الشِّيخ، وما أهابني أكثر هو وجود عدد مِنْ الشُّيوخ، الذين خلت رؤوسهم مِنْ العِقال، وهذه علامة أنهم رجال دين مِنْ المذهب الحنبلي، أو هم الوهابيون مثلما جرينا على تسميتهم. طلبت الحديث، متسلحاً بالإشارة إلى المصادر كأسماء كتب ومؤلفين، ظناً مني أن ذلك يجعل الشُّيوخ يحسبون لكلامي حساباً ولا يتعاملون معه ككلام حداثي عابر، على اعتبار أن ما في الدِّين والفقه مِنْ اختصاصهم.

قلت مِنْ دون التَّقديم لكلمتي بما اعتاد عليه رجال الدِّين، والمتدينون على العموم، مِنْ البسملة والصَّلوات، على اعتقاد مني، ومِنْ زمن بعيد، أن ذلك يخص السُّور القرآنية وإداء الفرائض لا في الحياة العامة. بدأت حديثي بالقول: إذا لم تكن هناك فائدة مِن هذا الحوار، وتحت هذا العنوان، فيكفي الجلوس على طاولة واحدة وجهاً لوجه، فهذا بحد ذاته يخفف مِن الاحتقان، ويزيل الكثير مِن التجهم بين المختلفين في الآراء، بعد هذا أقول: يصعب على أمثالي فهم ما تحدث به الشَّيخ سلمان العودة، فالحرب، أي حرب، تسفر عادةً عن فريقين منتصر ومهزوم، لا ثالث لهما.

وبالتالي سيكون الحوار بين المنتصر والمهزوم حسب ما يفرضه المنتصر، ولا استطاعة للمهزوم الاعتراض عليه أو حتى

مناقشته، وهو يكون وفق المثل الشَّائع: «تريد أرنباً خذ أرنباً.. تريد غزالاً خُذ أرنباً»! فأي حوار تصنعه الحرب! صحيح أن الآية الكريمة تقول: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: 193)، لكن لهذا النَّص ظرفه، وقد نزل بوجود النَّبي شخصياً، فهل حروب المسلمين بعد عصور كلها كانت لقمع فتنة؟!

تشجعت أكثر وأكملت حديثي قائلاً: نحن نطلب الحوار، لكن ما هو موقفنا مِنْ الشُّروط العُمرية، أو عهدة أهل الذِّمة! تلك التي أتت واضحة في كتب الخراج، وكتب الحُسبة كافة، ثم الأكثر وضوحاً في كتاب «مسألة في الكنائس» للشَّيخ ابن تيمية (ت 728 هـ)، وفي كتاب «أحكام أهل الذِّمة» للشَّيخ ابن القيم الجوزية (ت 751 هـ)، وفي الجانب الشِّيعي أوردها آية الله الخميني (ت 1989) في كتابة الفقهي «تحرير الوسيلة» تحت عنوان «أحكام أهل الذَمة». وإخذ يتعلمها تلاميذ المدرسة في الصُّفوف الأولى كتربية، مثل كيفية التَّحية أو السَّلام، ومَنْ يستحق ومَن لا يستحق التَّحية، وهم غير المسلمين!

كيف نطلب الحوار مع الغرب، ونحن مازلنا نُثقف بشرائط معايشتهم، ومنها ألا يبدأ المسلم بالسَّلام عليهم، ولا يرتفع بناؤهم على بناء بيوتنا، إلى غير ذلك مِنْ الشُّروط و العهود، المعرقلة

للحوار والتَّعايش فوق هذا الكوكب، الذّي تحول إلى قرية صغيرة، بفضل قفزات التكنولوجيا الهائلة. ومما عافته الدَّولة العثمانية منذ قرون.

وزدت: ما هو موقفنا مِنْ نسخ أكثر مِنْ مائة آية قرآنية وردت كلها بالمحبة والود والمعايشة والمسامحة بآية واحدة عُرفت بآية «السَّيف»! هنا انتهى حديثي، وقد شهدت الاستحسان على وجوه، والضِّيق غير الصَّريح على وجوه أُخر. إلا أن السَّيد المجتهد اللبناني علي الأَمين عندما طرحت مسألة الشُّروط العُمرية، وأتيت بتأكيدها مِنْ قبل آية الله الخميني، رمقني بنظرة رضا وأشار بالموافقة بيده. وكنت أرى تَّبسم بعض الحضور وأنا ألحق كلَّ اسم ممَنْ استشهدت بهم مِنْ القدماء بسنة وفاته، مثلما اكتب تماماً.

ارتباطاً بالتَّحول، الذي يجري داخل المملكة السُّعودية، ومحاولات الانفتاح، عندما خرجت مِنْ القاعة، واجهني أحد المسؤولين في مهرجان الجنادرية، ولعله لا يود ذِكر اسمه، وعندما طلب الحديث معي، توقعت أنه سيلومني، أو يخطرني بعدم التَّمادي بطرح مثل هذهِ الأمور، بشيء قد تسرب مِنْ داخل القاعة، فهو كان خارجها، حسبتُ لِما حملته ذاكرتي عن التَّشدد الدِّيني هنا حسابه، وأخذت أتوقع مثل هذه المواجهات.

لكن الرَّجل قال لي، والابتسامة كانت تزين ثغره: أحسنت! قُلت على أي شيء! قال: على ما طرحته داخل القاعة، وفهمت أنه تابعها عبر فضائية «الثَّقافية»، التي كانت تنقل وقائع المهرجان لحظة بلحظة عبر البث الفوري. قال: نريد حواراً جاداً لا شكلياً، كما جرت العادة! إلا أن بث مثل هذا الحديث عبر الفضائية، ومِنْ دون رقابة مانعة، يوحي أن التَّوجه صوب الانفتاح، وتكريس الحوار كان جارياً وجاداً، مِنْ قِبل ولاة الأمر.

موقف الصَّواف
مِن أساتذة عراقيين

جرت حوارات كثيرة ببهو الفندق، بعد عودة مِنْ إحدى الاحتفالات واللقاءات، أو على هامش النَّدوات التي أقيمت خلال المهرجان، ويكاد يكون موضوعها الأوحد هو التَّطلعات بالمملكة العربية السُّعودية إلى التَّجديد. أشار أكثر المثقفين السُّعوديين، الذين التقيت بهم، إلى أنها البداية. قالوا: ما كنا مِنْ قبل نستطيع قول ما نقوله في هذه اللحظات. وعزا الغالب منهم ما حدث إلى الملك عبد الله بن عبد العزيز، مع عروجهم على دور الملك سعود بن عبد العزيز (حكم 1953 - 1963)، لما شجع تعليم المرأة، ولما قام بمحاولات عديدة لتحسين أحوال التَّعليم، وإدخال المدنية، بعيداً عن هيمنة رجال الدِّين المتشددين، فهو أكمل ما كان بدأه والده المؤسس عبد العزيز (ت 1953).

إلا أن منهم مَنْ عقب بالقول: إن الزَّمن اختلف كثيراً، وما كان ما بين مصر النَّاصرية والمملكة العربية السُّعودية، ومحاولات

جمال عبد النَّاصر في تشجيع الثَّورات ضد الأنظمة الملكية، حدا بالمملكة في عهد الملك فيصل (اغتيل 1975) إلى تشجيع حركة الإخوان المسلمين، المضادة آنذاك لعبد النَّاصر، فاستقطبت العديد مِنْ رموز تلك الحركة، ومِنْ مختلف البلدان، واعتمدت عليهم في التَّربية والتَّعليم. وأن تفسير «في ظلال القرآن» لسيد قطب (أعدم 1966) كان يُذاع مِن مرسلات الإذاعة السعودية.

تحدث أحد المثقفين عن هذا الأمر بإسهاب، معللاً تغيُّر السَّلفية السَّعودية بعد الاحتكاك برموز الإخوان، مِنْ تلك البساطة، ونقاوة التَّدين إلى السِّياسة، السَّلفية التي كانت تعترض على دخول السِّيارة مثلاً، لكن الأمر كان ينتهي بركوب أحد العلماء فيها، ورؤية أهل القصيم له، حسب ما قرأته في مذكرات هاشم الرِّفاعي (بغداد، مطبعة الرَّشيد 1939).

ونحن نتحدث عن الإخوان المسلمين وجدتها مناسبة أن أتقصى أخبار أحد رموزهم العراقيين وهو الشَّيخ محمد محمود الصواف (ت 1992)، لكن لم أسأل أحداً عنه إلا وتأوه وامتعض مِنْ هذا الرَّجل، لسلوكه الشَّخصي، أو شدة تعصب لفكره، مع أنه مَنْ كتب عنه مِنْ الإخوان جعله ملاكاً، وكأنه يكتب عن نبي، وجدت مثل ذلك في كتاب «مِنْ أعلام الحركة والدَّعوة الإسلامية المعاصرة» للمستشار عبد الله العقيل، وهو سعودي، عاش بالعراق

وصحب الإخوان هناك، أو كتاب الإخواني العِراقي الشَّيخ كاظم المشايخي (ت 2004) «الشَّيخ محمد محمود الصَّواف.. رائد الحركة الإسلامية في العِراق»، الذي تحدث عن المعجزة بولادته في كيس نوراني.

كنت سمعت قصة مِنْ أكاديمي عراقي تفيد أن الصَّواف وقف موقف غير لائق مِنْ أبناء وطنه العلماء الأكاديميين العراقيين؛ الذين وصلوا إلى المملكة العربية السُّعودية للتدريس في جامعتها، تلك القصة التي ذكرتها في كتابي «مائة عام مِن الإسلام السِّياسي بالعراق». فقد أخبرني الأديب والأكاديمي عبد الإله أحمد (ت 2007)، في لقاء معه بأربيل (أبريل 2006)، خلال مهرجان مؤسسة المدى الثَّقافي، وهو مِنْ الذين عاشوا ذلك العصر وساهموا في أحداثه.

قال: إن الشَّيخ الصَّواف كان وراء الوشاية بالأكاديميين العراقيين اليساريين العاملين بالمملكة العربية السُّعودية، على خلفية الموقف مِنْ أهل اليسار عامةً أوان 1959. وكانوا وصلوا المملكة السُّعودية بعد انقلاب 8 شباط (فبراير) 1963 القومي - البعثي، وبعد صدور قرار بطردهم مِنْ الجامعة، وقعه زميلهم رئيس الجامعة آنذاك المؤرخ عبد العزيز الدوري (ت 2010).

كانت الجامعة السُّعودية بحاجة إلى مدرسين للتَّعويض عن المصريين الذين تأثر وجودهم بتوتر العلاقات بين المملكة

السُّعودية والجمهورية العربية المتحدة (مصر) بسبب حرب اليمن، ومحاولات جمال عبد الناصر (ت 1970) قلب الأنظمة العربية لتسير بمساراته، وهذا ما واجهته المملكة العراقية مِنْ قبل.

لكن ما أن سقط العهد الملكي وأُقيم النِّظام الجمهوري (1958) حتى أخذ عبد الناصر بمعاداته، وخلال أيام، لأن الزَّعيم عبد الكريم قاسم (قُتل 1963) رفض أن يكون العراق إقليماً أو محافظة مصرية، والعجيب أن القوميين العراقيين، أصحاب عبد النَّاصر، لم يحيدوا عن موقف عبد الكريم بعد قتله، واستلامهم السُّلطة بمباركة ودعم مصريين، فلم يقيموا الوحدة.

والأساتذة العراقيون، الذين عمل الصَّواف على إيذائهم ولم يتمكن هم: اللغوي مهدي المخزومي (ت 1993)، صاحب كتابيَّ «مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو» و«الخليل بن أحمد الفراهيدي». وكبير النُّقاد علي جواد الطاهر (ت 1996) صاحب «الشِّعر العربي في العصر السَّلجوقي»، وصاحب ثلاثين كتاباً أُخر في شتى مجالات الأدب. والأديب باقر سماكة (ت 1994)، صاحب «التَّجديد في الأدب الأندلسي». والفنان والأكاديمي خالد الجادر (ت 1988) صاحب «التَّصوير العراقي في القرون الإسلامية الوسطى» ومؤسس أكاديمية الفنون الجميلة ببغداد، وآخرون لا تحضرني أسماؤهم. ولما طالبت بهم الحكومة العراقية بحجة

أنهم شيوعيون، امتنعت الدَّولة السُّعودية تلبية الطَّلب. وكان جواب وزير المعارف السُّعودي آنذاك الشَّيخ حسن آل الشَّيخ، أو غيره مِن المسؤولين: «هل لديكم آخرون مِنْ هؤلاء الشُّيوعيين»!

أكد لي قضية تورط الصَّواف في مثل هذا العمل الأكاديمي والنَّاقد السُّعودي المعروف عبد الله الغذامي، وهو يعمل بجامعة الملك سعود، أخبرني: «أن الشَّيخ الصَّواف ألح كثيراً على وزير المعارف، حسن آل الشَّيخ، بخصوص طرد هؤلاء العلماء، وبعد أن تيقن الوزير مِنْ أن هؤلاء نوابغَ في تخصصاتهم، وليس لهم تدخل في السِّياسة، وليسوا متظاهرين بانتماء حزبي أو فكري أو سياسي على العموم، ولبلاده فائدة جمة مِنْ وجودهم، فلم يأخذ إلحاح الصَّواف بنظر الاعتبار وأهمله».

تلك حادثة مشهورة بين مثقفي العراق، بل إن عبارة «هل لديكم آخرون مِنْ هؤلاء الشُّيوعيين» شائعة، حتى باتت مِنْ المسلمات، سوى قيلت بهذه الصِّيغة أو لم بغيرها، وتلك مفارقة حين تحمي وتحتضن السُّلطات السُّعودية، وهي البلاد الرَّجعية والعادية للشِّيعة في نظرنا، أهل العلم والفن مع كونهم مِنْ اليسار وعليهم شبهة الشُّيوعية وأغلبهم مِنْ أهل الشِّيعة العراقيين، وأبرزهم كان النَّجفي محمد مهدي المخزومي، بينما يرميهم نظام بلدهم الذي يدعي التَّقدمية، بسبب خلاف سياسي، وهم

على هذا المستوى مِنْ الخبرة والعلم، ثم يلاحقهم عميد الإخوان المسلمين، وهو ابن وطنهم، بوشاية خطيرة في أرض الاغتراب!

خلال مهرجان الجنادرية أكد لي أكثر مِنْ أكاديمي هذه الحادثة، ولما سمعت أن صورة اللغوي العراقي محمد مهدي المخزومي مازالت معلقة في مدخل جامعة الملك سعود، خطر لي الذِّهاب لرؤيتها هناك والوقوف تحتها، لتقديري العظيم لعلم المخزومي وليطمئن قلبي على صحة وجودها.

في يوم آخر، ونحن في قاعة النَّدوات، جلس إلى جانبي رجل وقور، لم أره مِنْ قبل في نشاطات المهرجان، سلم عليَّ باهتمام وودٍ عاليين، وشاورني أن نخرج مِنْ القاعة، وإذا به الأستاذ الباحث في الجامعة ذاتها مرزوق بن تنباك، قال: قرأت مِنْ قبل إنك تناولت قضية الوأد عند العرب، وبما أني عالجت الموضوع مِنْ وجهة نظر أخرى أود أن تقرأ كتابي هذا، وأهداني كتابه «الوأد عند العرب بين الوهم والحقيقة»، موشى بإهداء كريم.

ولما عرض عليَّ أي مساعدة يقدمها لي لم أتأخر مِنْ طلب الذهاب إلى جامعة الملك سعود، والوقوف تحت صورة المخزومي. وقفت ببهو الجامعة أمام تلك الصُّورة، التي تأتي الثَّانية في تسلسلها لرُّؤساء قسم اللغة العربية بالجامعة، فالأول كان الأستاذ المصري مصطفى فهمي السَّقا، حيث ترأس المخزومي القسم بعده، ولأربعة أعوام (1964 - 1968).

زرت رئاسة قسم اللغة العربية، فالرُّؤساء ما بعد المخزومي كانوا سعوديين، وهناك مِنْ الأساتذة والمدرسين الشَّباب، مِنْ جيل عقديَّ السبعينيات والثمانينيات الدِّراسيين، لذا شدتهم أسئلتي عن المخزومي وعن النَّاقد والأديب والمحقق علي جواد الطاهر (ت 1996)، الذي ترك ذكرى طيبة بحذاقته الأكاديمية، وبتصنيفه لموسوعة أو معجم المؤلفين السُّعوديين. بحثت عن الصَّديق الأستاذ عبد الله الغذامي، ووجدت مكتبه مغلقاً، فقد كان على سفر.

مِنْ تقليد كلية الآداب، بجامعة الملك سعود، هو وجود خزانة زجاجية موجودة في رواق الكلية، تعرض فيها عادةً مؤلفات الأساتذة، وأشرت إلى كتاب آخر للأستاذ تنباك، إلا أنه قال لي: لا يوجد لديّ غير النُّسخة المعروضة في الخزانة. كان اهتمام تنباك قريباً إلى اهتمامي في تتبع شؤون التُّراث الإسلامي، فمِنْ غير «الوأد عند العرب» له «الجوار عند العرب في الشِّعر حتى العصر الأموي»، و«في سبيل لغة القرآن»، وكتب أُخر.

تأسفت أيما أسف مِنْ أنني لم أتمكن مِنْ مصاحبة الدُّكتور تنباك لحضور مجلس ثقافي خاص بمؤرخ الجزيرة وعلامتها حمد الجاسر، صاحب مجلة «العرب»، الذي كان سيُعقد برعاية أولاده، وذلك لاضطراري للمغادرة إلى جدة في اليوم نفسه. قرأت كثيراً

للبحاثة حمد الجاسر، وذكرني كثيراً بجهود الأب أنستاس الكرملي (ت 1947)، وبمجلته «لغة العرب»، بالعراق حيث صرف وقته وجهده للبحث وتسجيل الحوادث، ناهيك عن أن الكرملي والجاسر (ت 2000) كانا مِنْ السَّباقين إلى الحداثة، كلاً ببلده ومجاله خليا مِنْ تعصب ديني أو مذهبي. لكن في الزيارة الثَّانية، وهو حضور معرض الكتاب الدُّولي بالرياض (مارس 2011) قصدت مجلس الخميسية، بدارة حمد الجاسر، وعنوانها «دارة العرب»، الواقعة بحي الورود على ما اتذكر مِن الرياض، وشهدت صباحية يوم الخميس، التي تُقام مِن كل اسبوع. وبالرياض المجالس الثقافية تسمى على أسماء الأسبوع: السبوتية، والثلوثية، والربوعية، والخميسية وهكذا.

لاحظت حينها أن مصور المجلس السوداني، واسمه عبد النُّور، يقف أمام أي قادم أو جالس ويلتقط له صورة أو شريط مِن الصُّور، ويكرر الالتقاط بين حين وآخر، إلا أنه يتحاشاني مِن بين الجميع، وقلت في نفسي ربما لأني الوحيد لم أعتمر العقال والكوفية (الشماغ)، وأضع على رأسي البيرية، ولا أدري لماذا اقلقني تصرف الرَّجل. وعند المغادرة قبل انفضاض المجلس ناديت عليه، وسألته عن أسماء سودانيين، ومنهم الفقيد الصحافي حسن ساتي (ت 2008)، ثم بادرته هل توافق أن التقط لك صورة بكامرتي، فإني لا حظتك تتجاوزني مِن بين الحاضرين، فما السبب! لم أجد لديه جواب سوى أنه التقط لي صورة خلال المجلس واكتفى بها.

أتذكر كيف حرضني الصَّديق الدكتور محمد حسين الأعرجي الأكاديمي العراقي (ت 2010) ورئيس تحرير مجلة المورد، بعد عودته إلى بغداد أبريل 2003، للنَّشر في مجلة «العرب» السُّعودية، وقد أطنب في الثَّناء على صاحبها حمد الجاسر، وحدثني عن التَّقليد الحضاري الذي أرساه في المجلة، وذاك ما يفتقده العديد مِنْ المجلات المعروفة للأسف، لإهمال المواد وتأخر نشرها، وعن الالتزام بالاتفاق بين الكاتب والمجلة، فعادة ما يسلمها رؤساء التَّحرير إلى شلة مِنْ الصَّحفيين أو المحررين العرب، وأولئك لا يقيمون وزناً لغير معارفهم.

شدني الأعرجي إلى النَّشر في مجلة الجاسر، وبعثتُ المادة الأولى عبر البريد، حول المؤرخ ابن حبيب (ت 245 هـ)، بعدها بأسبوعين وصلتني رسالة خطية، مِنْ مكتب المجلة أعلمتني باستلام المادة، وأنها ستعرضها على فريق مِنْ الأكاديميين، لحيازة موافقة نشرِها، وقد فرحت أن تنشر المادة بعد تقييم علمي رصين، ومِنْ أُناس لم يسبق للكاتب معرفتهم، وهذا ما يضمن العدالة، ويزيد بهجة القبول أو الموافقة، وإن كان رفضاً تكون فرصة لمراجعة نواقص البحث.

كتبت ليَّ المجلة أنه سيكون الرَّد بعد ثلاثة أسابيع أو أقل، وبالفعل، مرت الفترة، وتسلمت رسالة الموافقة على النَّشر، مع

تحديد الشَّهر لنشرها. وبعد النَّشر وصلتني نسخ مِنْ المجلة، مع أربعين نسخة مِنْ بحثي المنشور في المجلة، مستلاً منها ومغلفاً بغلافها. بعد أن كنت غير واثق مِنْ قبول المادة، لا لتقنيتها إنما لموضوعها، فقد ذهبت إلى أن ابن حبيب أب في رواية التَّاريخ والآخرون عيال عليه، وأنه ابن ملاعنة أي غير شرعي لذا لُحق باسم أمه «حبيب» لا اسم أبيه.

الإمام الحسين بالرِّياض

صباح يوم الوصول إلى الرِّياض اتصلت بالصَّديق شيخ الصَّحفيين السُّعوديين والخليجيين رئيس تحرير جريدة «الرِّياض» تركي السّديري، وكانت مفاجأة له أن أكون بالرِّياض، ولأول مرة، فقد سبق أن التقينا بأبو ظبي، في احتفال توزيع جائزة الشَّيخ زايد السَّنوية، ولم أعلمه بذلك، لأنني لا علم لي بالدَّعوة. قال: سنلتقي هذه الليلة. التقينا بوجود الدُّكتور محمد الرُّميحي، وجاء معه الكاتب الموريتاني عبد الله ولد أباه، ونخبة مِنْ مثقفي السُّعودية وكُتاب جريدة «الرِّياض»، بدار الكاتب في الجريدة، اللَّطيف المعشر، عبد الله الجعيثن. شرق الحديث وغرب عن العراق، وعن استقرار العراق. كان الحضور الغالب مِنْ المحررين والكتاب، وبينهم كاتب رأي «الرِّياض» اليومي يوسف الكويليت، وهو شخصية حوارية، وصاحب آراء جريئة ومتقدمة، مع ظرافة لا تمل.

تكرر اللقاء أكثر مِنْ مرة بدار تركي السّديري، ويدور النقاش عن العراق أيضاً، والحالة التي يمر بها، وإذا فُتح موضوع

آخر نعود مِنْ جديد إلى العراق. أثارت انتباهي لوحة فنية معلقة على حائط المجلس، أو الدِّيوانية حسب التَّسمية العراقية، توحي أن لها علاقة ما بالإمام الحسين بن علي بن أبي طالب (قُتل 61 هـ)، وما كنت احسب أن أعثر على لوحة فنية مثل هذه بدار نجدي، أو حسب تقييمنا وتسميتنا وهابي. فسألت الأستاذ تركي عن أمر هذه اللَّوحة!

قال: وما هو تقديرك! قلت شبيه بلوحات شهادة الإمام الحسين، أي لها صلة بعاشوراء! ضحك وقال: ولماذا تقول شبيهة إنها لوحة شهادة الحسين بعينها، وفرسه الذي يحوم حوله بعد قتله! قلت: تريد الصِّدق ما كنت أتوقع ذلك، ليس لسوء ظن فيك، وإنما لتَّعبئة الماضي! قال: جلبتها مِنْ إيران، وأعجبتني جداً، وكما ترى موقعها في وسط الجدار.

سمعت مِنْ الحاضرين أن ما بين نجد والعراق الكثير مِنْ الوشائج، وكان العراق هو الممون بالثَّقافة والبضاعة، والدَّارس بالعراق ينظر إلى تلك البلاد بمنظار خاص، وما أكثر الوشائج مع الزُّبير بالتَّحديد، وبالتأكيد يبرز هنا اسم الصَّحافي النَّجدي سليمان صالح الدِّخيل (ت 1945)، مؤسس جريدة «الرِّياض» ببغداد، في العشرة الأولى مِنْ القرن الماضي. لذا لم يكن موقف وزير المعارف السُّعودي حسن بن عبد الله آل الشيخ (ت 1987)،

على الرَّغم مِن صغر سنه، فقد تولى وزارة المعارف وهو في نهاية العشرينيات - وهو مِنْ الأسرة الدِّينية المعروفة- مجافياً للحقيقة عندما احتضنت بلاده وزارته الأساتذة العراقيين المحسوبين على اليسار، أو على المذهب الشِّيعي، على الرَّغم مِنْ محاولة الإخواني الشِّيخ الصَّواف مثلما تقدم.

بعد هذا اللقاء، كتب بهذا المعنى تركي السِّديري رئيس تحرير جريدة «الرِّياض» (الاثنين 12 أبريل 2010) في عموده اليومي تحت عنوان «في خمول مجتمعات عربية بقيت للعراق ثقافته». جاء فيه: «ربما لا تفضل أن تقرأ عن العراق، حيث تجزم أن كلَّ شيء يتعلق بأحداثه ومصيرها مكشوف أمامك. لكن نصيحتي أن تبدأ بالعراق، فهو رغم سيئات واقعه السِّياسي والاجتماعي وتدافع هجرات الهاربين مِنْ قسوته إلى مختلف أنحاء العالم، كان هو العجيب الغريب في أمره، في كينونته فدول عربية لم تخسر بحجم ما فقد ودمر، لكنها تخدرت ثقافياً. فقدْنا تلك القدرات الخلاقة التي كانت شائعة قبل ستين عاماً في دول كثيرة، أما العراق فبقيت تتواصل فيه».

أتى على أسماء العديد مِنْ باحثي وكُتاب العِراق. لهذا السَّبب لا غيره يتوحد الحوار حول العراق في أي مجلس مِنْ مجالس المثقفين السُّعوديين عندما يكون أحد الحضور عراقياً.

مِنْ قبل، حدثني الأكاديمي والنَّاقد السُّعودي عبد الله الغذامي أن رجلاً نجدياً أغرم بتمر البرحي كثيراً؛ ولما شاهده بالبصرة وذاق طعمه، عجز عن العودة مِنْ دون حمل فسيلة منه، لزراعتها بأرض نجد، حمل الفسائل على جمل والماء لسقيها على جملٍ آخر، وحدا بهما صوب دياره، وطوال الطَّريق يسقي الفسيلة، حتى أوصلها صالحة للغرس برمال نجد. فتخيلوا كم كانت الرِّحلة شاقة عليه، مع متعتها، مِنْ أجل وصول فسيلة البرحي حيَّة خضراء، وبالفعل وصلت خضراء، وغرسها ونبتت وأعطت رطبها. روى لي الأكاديمي السُّعودي هذه القصة، ذات الأثر العميق في النَّفس، معلقاً ومستغرباً مِنْ تدهور الأحوال بالعراق، وتردي زراعة النَّخيل في المقدمة.

لقاء العمائم

كان مهرجان الجنادرية العام 2010 (1431 هـ)، عاجاً بمختلف فئات الثَّقافة والفكر، ومِنْ مختلف البلدان، والأديان والمذاهب، وكانت واحدة مِنْ الحوارات الفكرية حول السَّلفية. نظرت إلى العمائم الحاضرة فوجدتها بأكثر مِنْ لون وطراز، فالعمامة حسب كتاب «دفع الملامة في استخراج أحكام العِمامة»، لأبي المحاسن المعروف بابن المُبرد (ت 909 هـ)، تظهر بعدة حجوم وأشكال، وتتزين بعدة ألوان: البيضاء، والسَّوداء، والخضراء. واحتكر السَّوداء الفقهاء الشِّيعة مِنْ آل النَّبوة، وقيل إن الرَّسول دخل مكة يوم الفتح «وعليه عِمامة سوداء»(دفع الملامة)، وقيل هي التي أهداها لعلي بن أبي طالب، لذا احترك لونها العلويون السَّادة مَنْ هم على مذهب التَّشيع.

ويُكره اعتمار الزَّرقاء والصَّفراء والحمراء، حيث جُعلت هذه الألوان خاصة بأهل الذِّمة، عند تطبيق الشُّروط العُمرية عليهم بين فترة وأخرى عبر التَّاريخ. بل وجعل الرُّواة والإخباريون المسلمون

للملائكة عمائمَ خاصة. فصاحب السِّيرة ابن هشام (ت 213 هـ) يقول نقلاً عن أهل العلم: «إن علي بن أبي طالب قال: العمائم تيجان العرب. وكانت سيما الملائكة يوم بدر عمائمَ بيضاً قد أرخوها على ظهورهم إلا جبرائيل فإنه كانت عليه عمامة صفراء» (السِّيرة النَّبوية).

لكن أهل العمائم مختلفون في السلوك والطباع، والعمامة قد لا تُحسن ملافظ معتمريها، مع أنه المفروض بها هكذا. ففي الجنادرية التالية (26)، والتي أقيم موسمها في أبريل 2011، كنت أحد المشاركين في الندوة الأولى، وعنوانها «الغرب والإسلام فوبيا»، استغربت حينها مِن تصرف مفتي لبنان الشَّيخ محمد علي جوزو ذي العمامة البيضاء والمركوس داخلها الطربوش العثماني الأحمر، وعمائم أهل الشَّام مِن السُّنَّة كافة على هذا الطراز، وهو على ما أظن الجمع بين العمامة العثمانية والطربوش الاتحادي بعد أن منعت سلطات جماعة الاتحاد والترقي، التي أسقطت السلطان عبد الحميد الثاني (في 1909)، اعتمار العمامة.

أقول: استغربت مِن تصرف الشيخ لأنه رد عليَّ بعبارة: هذا العِراقي! محتجاً على مداخلتي التي قُلت فيها: إن الغرب ليس فيه فوبيا مِن الإسلام، إنما نحن لدينا الفوبيا! وقصدت العراقيين. فالانتحاريون يجوبون بلادنا، ويُفجرون الأسواق والمحلات ورياض الأطفال بانتظار العشاء مع الرسول والحور العين!

لست ممانعاً من تسميتي بالعراقي فهو اسم اعتز به، ولكنه أراد التقليل مِن شأني، وإلا كان اسمي وصفتي مكتوبين أمامي بخط عريض ومبثوثين عبر الشاشة الكبيرة داخل القاعة، إضافة إلى أن رئيس الجلسة قدمني وشكرني عند انتهاء مداخلتي.

كأن الجوزو أراد القول: هذا الذي لا اسم له. وكان تعليقه: أن هؤلاء الذين يفجرون أنفسهم ماذا يصنعون وفلسطين اُحتلت ومازالت محتلة! ولا أدري هل نحن نبقى ندفع دية احتلال فلسطين، ويعلم الشيخ أن القوميين المتعصبين وإخوان المسلمين، الذي هو ربما على وفاق معهم، هم الذين ساهم في ضياع فلسطين بالعمل على تهجير يهودنا العراقيين وكانوا وطنيين ناصعين، فعلى الشيخ أن يسأل زميله الشيخ مفتي القدس أمين الحسيني (ت 1974) على تلك المثلبة. لم أرد على الجوزو في وقتها لضيق الوقت، فما أردت القول له: كنت أحسب أن أهل العمائم يعرفون الأُصول، لكن للأسف!

هناك إشارة لطيفة بشأن غطاء الرَّأس الطَّيلسان، لا العِمامة، نسبت إلى ثمامة بن أشرس المعتزلي (ت نحو 215 هـ)، أو هي لراوي القصة عمرو بن بحر الجاحظ (ت 255 هـ). قال ثمامة للخليفة عبد الله المأمون (ت 218 هـ): «مررت بسكة أخرى، فإذا بغل قد عدا على رجل عليه طيلسان أخضر يظنه حزمة علف،

فعدا الرَّجل وعدا خلفه البغل، فصحتُ بالرَّجل: اطرح الطَّيلسان! فلما طرحه وقف البغل يشمه»(الجاحظ، كتاب البغال).

كنت لاطفت أحد أصحاب العمائمَ بهذه النَّادرة، لكنه بعد أن ضحك إلى حد دمعت عيناه، قال: أجدها خبيثة مِنْ خبائث المعتزلة، عندما غير المأمون اللِّباس الأسود إلى الأخضر الخاص بالعلويين، ثم عاد إلى الأسود، وهو راية العباسيين! ومنكم أنتم المعتزلة الجُدد، حيث عدَّني منهم، حسداً للنِّعمة التي تنزلت على أهل العمائم بالعراق، ومِنْ شتى الألوان! ومعلوم أن القائل والراوية، ابن أشرس وابن بحر، مِنْ وجهاء المعتزلة ومتقدميهم، وكلاهما مِنْ معتزلة البصرة التي كانت تُعد بالعثمانية آنذاك، نسبة إلى الخليفة عثمان بن عفان (قُتل 35 هـ)، مقابل معتزلة بغداد العلوية عندما يجري الجدل حول الفاضل والمفضول في شأن الخلافة.

لقد تنوع ما شاهدته مِنْ أغطية الرَّأس للفقهاء المشاركين في مهرجان الجنادرية؛ فمنهم مَنْ وضع على رأسه الكوفية (الشماغ) بلا عقال، وهؤلاء على الأغلب مِنْ فقهاء الحنابلة، ومنهم مَنْ اعتمرها سوداء صماء، أي لا ذؤابة أو ذيل يتدلى مِنْ خلفها، وهؤلاء مِنْ فقهاء الشِّيعة مِنْ طبقة السَّادة العلويين، ومنهم مَنْ اعتمرها في المهرجان صماء بيضاء وهو مِنْ فقهاء الشِّيعة بالأحساء والقطيف مِنْ غير السَّادة، أي مِنْ العامة، ثم مَنْ اعتمرها

ذات ذؤابة بيضاء، مع لباس أبيض، وهؤلاء مِنْ الصُّوفية الشَّافعية على أكثر تقدير، وكان أحدهم الشَّيخ علي الجفري، المعروف بلقب الحبيب. إضافة إلى عمائم أهل عُمان المزركشة بأكثر مِنْ لون، وهم مِنْ المثقفين لا مِنْ علماء الدِّين.

شهد الإعلامي الدُّكتور سليمان الهتلان حواري مع أحدهم بشأن الإباضية والشِّيعة، وكان حواراً يجمع بين الجد والهزل، وما حصل بصفين (37 هـ)، ومَنْ هو على حق ومَنْ كان على باطل. وإذا بالهتلان يعرض علينا نقل هذا الحوار عبر برنامجه في فضائية الحرة، وأظنه كان هازلاً، إلا أن محاوري العُماني عبد الله، ويعذرني إن نسيت بقية اسمه، رفض بشدة، وترك الحوار.

حضر المهرجان والحوارات مِنْ علماء جبل عامل: السَّيد محمد حسن الأمين، والسَّيد علي الأمين، والسَّيد هاني فحص، معتمرين عمائمهم السُّود، وجببهم الدَّاكنة، على أنهم مِنْ سلالة النَّبي. ولم أجد شخصاً مهذب العبارة يتحدث إليك بحياء مثل السَّيدين علي، ومحمد حسن، كذلك للسَّيد هاني فحص السَّجايا نفسها مع ظرافة وملح يلقيها مِنْ دون تكلف، يخفف بها حدة الخلاف ويبرد مِنْ سخونة الجدل.

كنت قلقاً وأنا ألمح السَّيد محمد حسن الأمين يقدم بحثه، غير المكتوب، حول السَّلفية، وفي طرف الطَّاولة كان يجلس الشَّيخ عائض القرني، وهو يضع الكوفية (الشِّماغ) على رأسه بلا عِقال،

وعدد مِنْ وجهاء السَّلفية، أو شيوخ الوهابية مثلما جرينا على الإشارة إليهم، متوزعين على طاولات الحوار، مِنْ بين المستمعين والمحاورين، لكن السيد الأمين قال كلمته شارحاً المعنى بكلام علمي لا يؤول أنه ضد جهة دون أُخرى، وأن السَّلفية بمعناها العام لم تحتكر مِنْ قبل مذهب دون آخر، بل لكل مجال مذهبي أو ديني أو فكري سلفيته، ونالت مداخلته الاستحسان.

على العموم، كانت العمائم السُّود منها والبيض الشِّيعية ليس في قاعات الحوار حسب، بل في مقدمة الصُّفوف داخل القصر الملكي. أقول: تبدلت الدُّنيا وحركة الزَّمن جارية لا تتوقف، ولا تعود إلى الوراء، تفرز رجالاً وقادةً عقلاء، ولم يُعد جنس العمائم أو الثِّياب، بما تتأبطه مِنْ أفكار ومقالات، محجوبة عن بعضها بعضاً. وبلاد نجد نفسها ليست واحدة، بل المشارب تعددت، فلا نأخذها بالسَّمع عن ماضيها قبل رؤيتها. أما ما قاله بشار بن برد في تفضيل السَّمع على الرُّؤيا، أو الأذن على العين، فله حجته كونه أعمى، وهي ليست كذلك، أقصد ما قاله (الأصفهاني، كتاب الأغاني):

يا قوم أذني لبعض الحيِّ عاشقةٌ

والأذن تعشق قبلَ العين أحيانا

أو قوله وهو يسمع امرأة يُقال لها عبدة:

قالوا بمَنْ لا ترى تهذي فقلتُ لهم
الأذن كالعين تُوفي القلبَ ما كانا

في حفل مكتبة الملك عبد العزيز، الذي وزعت فيه جائزة خاصة بالتَّرجمة، أتذكر أن الكاتب الفرنسي السُّوري الأصل هاشم صالح، كان أحد الحائزين عليها، وألقى في الحفل الأمير متعب بن عبد الله بن عبد العزيز كلمته، دون أن ينسى طلب المعذرة عن الغبار في تلك الأيام، حيث العواصف التَّرابية أخذت تعيق سير العربات التي تقل ضيوف المهرجان، قال: «اعتذر عن البيئة». عند الخروج مِنْ القاعة لاحظتُ السَّيد هاني فحص يسير خلفي، فمسكته مِنْ يده وقدمته مع القول ملاطفاً: أخشى أن تفسقني أو ربما كفرتني، وأنت تسير خلفي بعمامتك! قال مِنْ دون احجام: وهل أنت بعازة إلى فتوتي فيك!

بعد الانتهاء توجهنا إلى القصر حيث اللقاء بالملك عبد الله بن عبد العزيز، وبالمصادفة لحظت العمائم السُّود أمامي مجتمعةً، ففكرت حينها بعنوان مقالة «عمائم سود بالقصر الوهابي»، لكني قُلت ستفهم أنها نقد للماضي الذَّي احمله في طيات ذاكرتي، بينما أردت منها إبراز المفارقة، فأخذت بمشورة الصَّديق عادل الطَّريفي وكتبت المقال تحت عنوان «عمائم سود بالقصر النَّجدي»، وبالفعل نشرت هذه المقالة في حينها، في

مجلة «الأسبوعية البغدادية»(مايو 2010)، ثم جعلته عنواناً للخواطر التي بين يدي القارئ، مع التحوير إلى «عمائم سُود بقصر آل سُعود». جلس أصحاب العمائم وجهاً لوجه على طاولة الملك يتناولون الغداء معه، بينما توزع الباقون على بقية الطَّاولات. رمقت العمائم وأنشدتُ هامساً لأبي الطَّيب المتنبي مع اختلاف المقصد، خصوصاً وقد لاحظت السَّيد علي الأمين كثير تعديل عمامته، مِنْ دون رفعها:

تبدو لنا كلما ألقوا عمائمهم
عَمائم خُلقت سُوداً بلا لِشمِ

كان العدد يزيد على الأربعمائة ضيف، ولابد أن الجميع سيصافحون الملك فرداً فرداً. دخل الملك محفوفاً بالمرافقين وأخذ محله في مواجهة الضُّيوف، وألقى كلمة ترحيب، أشار فيها إلى موضوع الحوار والتَّقارب بين الثَّقافات وبين الأديان، وإلى مهام المثقفين في مواجهة التَّطرف والإرهاب.

ثم ألقى وزير الثَّقافة اللبناني سليم وردة كلمة باسم الحضور. لاحظت أن الحرس ينظم وصول الضُّيوف إلى الملك صفاً صفاً، إلا أن البعض، مِنْ الكُتاب العرب، حاول تغيير مقعده قافزاً إلى الصَّف الأول، فاضطر الحرس إلى إعادته بلطف إلى مقعده، حفظاً على النِّظام، وعدم تجاوز الآخرين، ثم كررها

بغفلة مِنْ الحرس وأعيد إلى مقعده مرة أخرى، حتى لفت انتباه الآخرين. فيغلب على الظن أنه أراد الوصول المبكر لمصافحة الملك، وعندها قد يُمنح فرصة للسَّلام الحار، وربما الحديث بأكثر مِنْ التَّحية، مع أن الموقف لا يسمح بذلك، هذا هو التَّفسير الذي تهامست به مع كاتب مصري كان يجلس إلى جانبي في آخر الصُّفوف، ويبدو أنه لا يطيق صاحبنا.

سالم الخيُّون 1952

كان ثمة رجال يقفون عند مدخل القاعة بالقصر الملكي، وحدة التَّشريفات، ليست غريبة عليَّ، الثِّياب البيض والحزام الجلدي الذي يتقاطع عند الصَّدر مع حمائل السَّيف، وموضع الخنجر، وحمل البندقية. فعائلتنا مازالت تحتفظ بصورة يعود تاريخها إلى العام 1952، يظهر فيها ولي العهد آنذاك الأمير سعود بن عبد العزيز (ت 1969) مستقبلاً الشَّيخ سالم الخيُّون (ت 1954)، عند زيارته إلى المملكة لأداء فريضة الحج، أو لأمر آخر، ويغلب على الظَّن أن المكان كان مدينة جَدَّة.

حرصت على التِّقاط صورة مع أولئك المصَّطفينِ عند مدخل القصر، مع أن التَّصوير ممنوع داخل القصر، وقد أُخبرنا بذلك. وظلت الفكرة تراودني بقوة، ووجدتها فرصة قد لا تتكرر، فأولئك الحرس وبذلك الزَّي لا يوجدون في أمكنة أُخر.إلا في داخل القصر، ولا بد مِنْ صورة أقرنها بتلك الصُّورة القديمة بل والنَّادرة، حيث لم يحصل أن تنشر مِنْ قَبل، وهي تجديد لذكرى

ذلك الرَّجل سالم الخيُّون الذي شغل منطقتنا والعِراق عموماً، وكان وزيراً في أول وزارة شُكلت بالعِراق (أكتوبر 1920)، ثم نفاه الإنكليز إلى الهند ثم الموصل، ومُنع مِنْ العودة إلى دياره، وقضى بقية حياته بمنطقة ديالى. بعد الانتهاء مِنْ الغداء طلبت مِنْ القائمين منهم عند مدخل القصر أن ألتقط معهم صورة وشرحت لهم الغاية والقصد، فتقبلوا ذلك بطيب خاطر.

تأملت تلك الزِّيارة والحفاوة بشيخ قبيلة شيعية، ليس له منصب رسمي آنذاك، وبأمر الطَّائفية التي وصلت اليوم إلى ذروتها حيث قطع الرُّؤوس على الهوية وسفك الدِّماء والعزل الطَّائفي، وأجدها دليلاً يُضاف إلى دَّلائلَ كثر على أن شأن الطَّائفية سياسي قبل كلِّ شيء، فليس هناك تناسب بين الحفاوة بالخيُّون آنذاك، والخلاف الطَّائفي المرير، وبالتأكيد عندما يُستقبل شيخ عشيرة، مِنْ أكابر عشائر العِراق الجنوبية (بنو أسد) لا بد أن التَّقدير موصول إلى العشيرة نفسها، ومنها عائلة آل الخالصي الدِّينية الشِّيعية، فهم أسديو الأصل أيضاً.

أتذكر لاحظت في أوراق تركها العم ثعبان الخيُّون، نجل سالم الخيُّون الأكبر (ت 2001)، بأن المملكة العربية السُّعودية في تلك الزِّيارة أهدت للشِّيخ سالم سيارة فورد وخنجراً مُذَّهب، وكان مصير السَّيارة، المسجل عليها اسم الدَّولة السُّعودية، أن صودرت

إثر ثورة 14 تموز 1958. وقرأت أيضاً أن هناك صلات قديمة، عندما كان الملك عبد العزيز ووالده بالكويت، وهناك صورة رسالة مِنْ الملك عبد العزيز إلى الشَّيخ سالم يرد فيها على رسالة وصلته منه، بعد تسلمه الحكم، على ما أتذكر رداً على تهنئة.

وما علمته أيضاً، مِنْ تلك الأوراق، أن المملكة منحت أسرة آل خيون الجنسية السُّعودية، لكن الشَّيخ سالم اعتذر مِن قبولها، لأن جنسيته العراقية لم تُسقط عنه. ولما حاول أحد أبناء أخوته، وهو نايف بن هندال الخيُّون (ت 1995) مراجعة السَّفارة السُّعودية ببغداد، على أساس أن الجنسية كانت مرتبطة بمنحة مالية، استدعاه عمه الشَّيخ سالم وعنفه، وأمر أن يحفر له في الأرض مثلما كانوا يُعاقبون بما يُسمى الطَّامورة، يُنزل بها المراد عِقابه إلى نصفه ويترك بالشَّمس لفترة مِنْ الوقت، وهو عقاب نفسي أكثر منه جسدي. وعلمت أن رفض الجنسية والمنحة المالية ليس تعالياً إنما قول سالم، الذي كان يردده: إننا دولة فيها الخير كثير. لكن الصَّداقة ظلت ممتدة، حيث واظب نجل الشَّيخ سالم العم ثعبان الخيُّون على المراسلة في المناسبات الرَّسمية، حسب ما يظهر في الأوراق، التي اطلعني عليها أولاد عمي ثعبان الخيُّون سالم وغانم وحرصت ابنة العم سفانة على إرسالها لي.

ليست الصِّلات بين سالم الخيُّون وآل سُعود وحدها تخطت أمر الطَّائفية، فمِن قبل أرسل أمير الكويت الشَّيخ مبارك الصُّباح

(ت 1915)، وهو على المذهب المالكي أيضاً، إلى حسن آل خيون، والد الشيخ سالم، أربعة رسائل يحثه فيها على المجيء إلى الكويت، بعد أن عرف مبارك عن محنة والد سالم الخيُّون مع كاظم باشا صهر السُّلطان العثماني لما أخرجه من الأهوار (1893) إلى ضفاف إيران (لونكَريك، أربعة قرون من تاريخ العِراق الحديث).
جاء في إحداهما (1902: «إلى حسن الخيُّون، أول السؤال عن عزيز خاطركم... أخي أنت اليوم رئيس عشيرة، ما ينسب لك الكَعدة عند العجم (وفي الثانية قال: لا يغرونك وترجع إلى دولة العثماني) فعاد حين وصول خطنا هذا إليك توكل على الله وتجي لطرفنا مع جميع عشيرة الذي عندك... عندنا أسلحة موزر ومارتين من إنكلتره، كذلك جميع ما يكفي إلى عشيرتك عندنا موجود، وعاد يا أخي منكم الأمر ومنا الطاعة، المشتاق مبارك الصباح» (18 جمادي الأولى، سنة 1320).

كنت حصلت على نسخ لرسالتين منها عن طريق الوجيه الكويتي يعقوب الإبراهيم، ثم وجدتها منشورة في جريدة «القبس» الكويتية اخرجها الباحث الكويتي الدكتور فيصل الكندري، وقد سألني قبل نشرها عن شخصية حسن آل خيون فأجبته. وهنا اقتبس ما نشره في الجريدة المذكورة: «هذه الوثيقة عبارة عن رسالتين كتبهما الشَّيخ، مبارك الصَّباح وأرسلهما إلى شخص واحد، فوصفه، في الرِّسالة الأولى باسم حسن الخيون، وفي

الرِّسالة، الثَّانية لحسن آل جناح، فالرسالة الأولى كتبت في 18 جمادى الأولى 1320 هـ/23 أغسطس (آب1902). أما الثَّانية فكتبت بتاريخ 3 رجب 1320 هـ أكتوبر (تشرين الأول) 1902 ومن طريف ما قدره الله تبارك وتعالى إننا شاركنا في الملتقى الإعلامي العربي الثَّامن الذي عقد بدولة الكويت في أبريل الماضي بدعوة كريمة من الأخ العزيز ماضي الخميس، وفي إحدى الجلسات تحدث الأستاذ رشيد الخيون، وبعد انتهاء الجلسة تحدثت معه حول هاتين الرِّسالتين، ومدى معرفته بحسن الخيون، فأخبرني بأنه جده، وسألته عن حسن الجناح فقال: إنه الشخص نفسه، أحياناً يلقب باسم الخيون وأخرى باسم آل جناح، وهو رئيس عشيرة من بني أسد، يسكنون منطقة الجبايش من هور الحمار في شمال البصرة، وقلت له إني سأنشرها على صفحات القبس خلال الأيام القادمة، فطلب مني نسخة مما سأنشره، ووعدته بأني سأرسلها له عبر بريده الإلكتروني».

الرِّسالة الأولى:

أولاً: يبدأ الشَّيخ مبارك رسالته بالسؤال عن صحة حسن الخيون، ويطمئنه بأنه بخير وبصحة، ويعتب عليه الشَّيخ مبارك الصَّباح بأنه أرسل إليه قبل هذه الرِّسالة أربع رسالات أخرى ولم يتلق عليها أي جواب. قال: من قبل هذا أرسلنا لكم مكاتيب أربعة فيقول عن ذلك: ولا أخذنا منكم جواب عسى المانع خيراً.

ثانياً: يخبره الشَّيخ مبارك بأنه أضحى الآن رئيساً لعشيرته، وهو رجل طاعن في السن، ولا ينبغي لمثله اليوم أن يمكث في بلاد العجم.

ثالثاً: يطلب منه الشيخ مبارك بمجرد وصول هذا الخطاب إليه بأن يترك مكانه ويرحل مع أفراد عشيرته للإقامة بالكويت في كنف الشَّيخ مبارك، وحتى يرغّبه ويحبب هذا الأمر إليه أخبره بأنه على استعداد لتزويده بكل ما يحتاج إليه من أموال ومن أسلحة إنجليزية متطورة تكفيه مع أفراد عشيرته. فيقول: فعاد حين وصول خطنا هذا إليك تتوكل على الله وتجي لطرفنا مع جميع عشيرة التي عندك.

الرِّسالة الثَّانية:

أما عن أهم ما ورد في رسالته الثانية فنورد التالي:

أولاً: يستهل الشيخ مبارك رسالته بالسؤال عن صحة المرسل إليه، ويبين له اشتياقه لرؤيته، كما يكرر عليه ذات الطلب، ويطلب منه أن يترك حياة الغربة ويتوجّه مع عشيرته إلى الكويت، بحجة أنه كبر في السن، ويحتاج إلى الراحة، فيقول له لله الحمد سالمين طيبين وإلى رؤياكم كثير مشتاقين بعده يا أخي لا يخفا عليك انه في غايت الراحه وأحب إنك تستريح، وانته رجل

شايب بسك من الغربه توكل على الله وتوجه إلينا في الكويت انته وعشيرتك.

ثانياً: يحاول أن يغريه مجدداً بالقدوم إلى الكويت، حيث سيوفر له كل ما يحتاج إليه من النقود، أما عن الأسلحة والبنادق من نوع مارتيني، فهي متوافرة عنده بكثرة، ولن يدعهم يحتاجون إلى أي شيء، وأضاف الشيخ مبارك أنه لن يسمح لهم بأن يظلوا يزرعون عند العجم أو عند العثمانيين من أجل الحصول على المال، جميع ما تحتاج تفنك مارتين موجود. وذلك في قوله عندنا صناديق صناديق، وكلما يقتضى لكم دراهم موجود عنده نا نسلمكم ولا أخليكم تحتاجون تزرعون عند العجم ولا عند العثمانى.

ثالثاً: يطلب منه الشَّيخ مبارك أنه بمجرد أن يوافق على القدوم إلى الكويت سيرسل له سفناً عن طريق المحمرة لنقله هو وأتباعه إلى الكويت، ويطلب منه ألا يغترّ بما يقوله العثمانيون ليذهب إليهم، ويذكره توكل على الله: بما فعلوه معه في السَّابق، فيقول له وأمرنا حتى نرسل لكم سفاين (سفن) من طريق المحمرة توكل وتعال إلى طرفنا، ولا يغرونك ترجع إلى دولت (هكذا) العثماني، وانته رءيت (هكذا) فعلهم معاك سابقاً.

رابعاً: أرسل الشَّيخ مبارك هذه المرة ابنه حمود ليقوم بنقل الرِّسالة إلى حسن الخيون، وذيّل رسالته هذه لازم المرة بعبارة

ضرورة إرسال رد هذه المرة بقوله بمعنى أنه انتظر طويلاً ليتلقى منه جواباً على طلبه (لازم ترسل لنا جواب). لذا ختم رسالته بوضع هذه الملاحظة الهامشية أسفل الرِّسالة (الكندري، الكويت في الوثائق العثمانية، من مبارك إلى حسن الخيون، القبس، العدد المرقم: 13626 والمؤرخ في 6 مايو 2011) .

أين النِّساء؟!

كانت أصوات النِّساء تتناهى إلينا مِنْ الدَّور الثَّاني مِنْ قاعة النَّدوات. ففي أول الأمر سمعت صوت امرأة مِنْ دون رؤيتها، فسألت عن ذلك، فقالوا هنَّ في الدَّور الثَّاني، ويشاركنَ مِنْ هناك، وهذا ما لاحظته بمدينة جدَّة عندما حضرت مؤتمراً للشُّعراء هناك، حيث كانت ستارة فاصلة بين الشُّعراء والشَّواعر. أما في موسم الجنادرية (26) فكان جلوسهنَّ مع الرِّجال في قاعة واحدة، بل شاركنَ في الندوات سوية مع الرِّجال.

حاولت الدُّخول في نقاش حول قضايا النِّساء مع غير المثقفين، كبائعي الكتب أو السَّائقين، لكني استمتعت بالحديث مع شاب مِنْ مواليد 1986 رافقني إلى مكتبة الملك عبد العزيز، هناك التقيت بنائب المشرف العام على المكتبة الدُّكتور عبد الكريم بن عبد الرَّحمن الزَّيد، بتوجيه من الشَّيخ فيصل المعمر المشرف العام للمكتبة ونائب وزير التَّربية والتَّعليم، كانت البناية تجمع بين المكتبة والمُتحف، تجولت في أقسامها، ورأيت مافيها

مِنْ خرائط قديمة ومخطوطات ومصادر لا يستغني عنها باحث أو طالب معلومة.

سألت الشَّاب هل تؤيد سواقة النِّساء للسيارة؟ قال لا، لأنك ترى الازدحام في الشَّوارع فكيف إذا أضيفت أعداد النِّساء إلى الرِّجال، ستضيق الطُّرق وستنخسف الأرض بنا! قلت له: ذلك يعني أنك لو أصبحت مديراً عاماً للمرور أو الشُّرطة مثلاً، ستقف ضد طلبات النِّساء بإجازات السَّوق!

قال وقد أخذته نوبة مِنْ الضحك: أولاً دعني أصير مسؤولاً كبيراً، ومِنْ بعد يحلها حلال، وأقوم بما أنت تريده! وبعد نقاش طويل معه حول النِّساء وكيف سيساعدنَ أسرهنَّ وأنفسهنَّ عندما يتمكنَ مِنْ السُّواقة أعطى مقترحاً، هو أن يُخصص يومٌ للرِّجال ويوم للنِّساء! وهو مقترح طريف، أن يغيب الرِّجال نصف الأسبوع عن الشُّوارع والطُّرقات، وربما عن العمل أيضاً، أو أن تتحول مهنة السُّواقة إلى السَّائقات، فتؤنث الطُّرق في يوم وتُذكر في يوم آخر!

كانت مفارقة أن يهدى لي مِنْ المكتبة، وبيد نائب مشرفها العام، فهرست مجلة «لغة العرب» العراقية، حيث صنعته المكتبة بتجليد قشيب 2003. بينما عانيت ما عانيت مع قسم المكتبة في معرض أبو ظبي في أن أحصل على هذا الفهرس الثَّمين بالنِّسبة لي. يومها كنت أتجول في معرض أبو ظبي للكتاب (2009)، فوقع

نظري على كتاب عنوانه: «لغة العرب.. ورئيس كتبتها أنستاس الكرملي». كان عبارة عن دارسة تاريخية لصاحبها وكشاف لمواضيعها.

أخذت أقلب صفحات الكتاب، وهو الكنز الثَّمين بالنِّسبة لي، فقلت للرَّجل القائم على القسم، أريد هذا الكتاب. فأجاب بنبرة حادة: «ما هو للبيع»! ويبدو مِنْ لهجته وتعابير وجهه أنه غير قابل للتَّفاهم. ولما عرفته بنفسي بأني كنت أكتب في جريدة «الشرق الأوسط» واسمي فلان، وأصدقائي مِنْ المثقفين السُّعوديين فلان وفلان، لعله يلين معي، قال: لا أعرف شو أنت ولا أعرف أصحابك، يا أخي أرجوك!

قلت: لن أتحرك مِنْ هنا إذا لم أحصل على هذا الكتاب! وطويت مفاصلي وتربعت عند واجهة القسم السُّعودي! وأردفت قائلاً: كم تريد سأدفع لك أو تهبه لي هبةً! علا صوته وعلا صوتي، وكدنا نتماسك بالأيدي. وبعد أن يئس، وأكثر مِنْ التَّعوذ والحوقلة، التفت الرَّجل يمنة ويسرة، ثم قال: خذه وطير عن وجهي! حاولت تقبيله فلم يسمح لي. حكيت القصة لنائب المشرف العام، ونحن بمكتبه! وإذا به يعتذر عن ذلك الرَّجل، وقال بدل الكتاب نعطيك كتابين، وأعطاني نسخة ثانية، أهديتها بدوري للصَّديق تركي الدِّخيل، وذلك لكثرة ما ورد فيه حول قريبه الصَّحافي سليمان

صالح الدّخيل (ت 1945)، صاحب جريدة «الرياض» ببغداد في مستهل القرن الماضي، مثلما وردت الإشارة.

اكتملت الفرحة في أني وجدت في المعرض نفسه، معرض أبو ظبي، مؤسسة دينية مصرية تعرض مجلات قديمة للبيع، مثل «الضِّياء»، و«المنار»، وبينها دورة واحدة مِنْ مجلة «لغة العرب»، وكنت أستخدم نسخة استهلكتها أيدي المطالعين حتى كاد ورقها يصير رماداً في اليد عند التَّصفح، فحجبتها مكتبة الاستشراق البريطاني عن الأعين، ولم تظهرها إلا بطلب خاص يطول فيه الانتظار، ثم منعتها نهائياً. قال البائع بلغة أهل مصر: «مفيش غيره.. نسخة واحدة»، وسعرها: (2750)، وحسبتها دولاراً -ومع ذلك ليست غالية- إلا أنها دراهم لا دولارات، وكيف إذا كان عليها حسم 30٪ مِنْ سعرها. وهكذا تملكت «لغة العرب» وكشافها الموسوعي.

مع التُّونسي التُّركي

كانت اللقاءات في بهو فندق ماريوت، وسط الرِّياض، مستمرة طوال النَّهار والليل، حيث حسدنا المقيمون بدور الضِّيافة الرَّسمية، لعزلتهم هناك، ومن بينهم أصحاب العمائم السُّود، ووزير الثَّقافة الإيراني السَّابق عطا مهاجراني، الذَّي وصلتُ معه على طائرة واحدة مِنْ لندن، لكننا لم نتعارف إلا داخل مطار الملك خالد، وكانت الفاتحة بسؤاله، ونحن في الانتظار عن مكان للصَّلاة، ثم اتصل الحديث بكتابي «المشروطة والمستبدة»، والحدث نفسه، أي الحركة الدُّستورية بإيران وتركيا، وكان العِراق ساحة للنِّضال في سبيل الدُّستور بالنَّجف وبغداد 1906.

كان موسم الجنادرية مصدر صداقات جديدة، أو إحياءً للقديم منها، ربما عبر كتاب أو مقال أو لقاء. مِنْ الحوارات الهامشية، ونحن على مائدة الإفطار صباح الوصول إلى الرِّياض (17 مارس 2010) حوار حول الاعتراف التُّركي بإبادة الأرمن، جرنا إلى هذا الحوار أحد المثقفين حيث قَدم نفسه أنه تركي، لكن

بشرته السَّمراء، وشعره المجعد ولكنة لسانه، وهيئته بشكل عام، كلُّ هذه الأمور أوهمتني أمراً بأنه ليس مِنْ تلك البلاد الأُصلاء، وبعد اعتراضه ونفيه المطلق لتلك الإبادة، التي حدثت السنة 1915 للعنصر الأرمني، والمسيحي بوجه عام، اضطرني إلى الاستفسار فقلت: هل أنت تركي حقاً؟ تحرج بعض الشَّيء وقال: أنا تونسي الأصل، ومتزوج مِنْ امرأة تركية، وحصلت على جنسية بلادها، ولديّ مؤسسة «الحوار التَّركي العربي». أرى الدُّنيا بأجمعها تسير نحو الحوار، وأين كان مِنْ قبل، وما هي الحواجز لا أحد يسأل.

إذن دعنا نفكر ببرودة أعصاب، فلا أنت تركي ولا أنا أرمني، علينا الشَّك في الأمر لا النَّفي المطلق ولا القبول المطلق، فتلك كما تعلم دماء ملايين مِنْ البشر، حسب الرِّواية الأرمنية وشهود عيان آخرين، وهناك مَنْ شهد تلك الحوادث المريعة، فكيف تكون ولا قتيل واحد حسب الادعاء التُّركي؟! تقبل الكلام، وقال كيف يُطلب مِنْ تركيا، ما بعد العثمانيين، الاعتراف بهذه التي تسمونها أنتم إبادة، وهل هي مسؤولة عن ذلك؟ فقال أحد الحاضرين: نعم هي مسؤولة! لأنها وريثة الدَّولة العثمانية، والوريث يرث الإيجاب والسِّلب!

قلت: هذا ما نعانيه نحن بالعراق، فالنِّظام السَّابق حارب وغزا، فها هو الشَّعب العِراقي يدفع الدِّيات والغرامات، وكلَّ آثار

حماقات صدام حسين. كان هذا آخر لقاء مع صاحبنا التُّونسي التُّركي، في أيام المهرجان، فبعد ذلك لاحظته أخذ يتجنب المجلس الذي أكون فيه. وأظن أنه لو كان تركياً بالأصل، ومثقفاً، لما تعصب هذا التَّعصب، لكنها علة إثبات الانتماء الجديد للأوطان والقوميات والأديانِ والمذاهب والأحزاب، فأكثر المتعصبين إلى القومية العربية هم مِن غير العرب، وقس على ذلك.

نفى صاحبنا تلك المجازر بينما الأمم المتحدة تقبلت لوحة لرسام أرمني جسدت تلك الحوادث، وهي عبارة عن مشهد جماجم متراصة، ما تزال تزين إحدى أروقة مقر الأمم المتحدة بجنيف، هذا ما شاهدته وأنا أزور ذلك المقر، حيث وقفت داخل القاعة التي قيل لي إنها شهدت اتخاذ قرار وقف الحرب العراقية الإيرانية. يغلب على الظَّن أن الأمم المتحدة في قبولها بهذه اللوحة، وعرضها على جدار دارها الرَّسمية، إنه اعتراف أممي بالكارثة أو المأساة الأرمنية.

الشُّيوعي السُّعودي الأخير

حرصت على اللقاء بصالح المنصور، وهو الذي كتب عنه روائي سعودي رواية بعنوان «الشُّيوعي الأخير»، حرصت على اللقاء به لكثرة ما سمعتُ مِنْ مثقفي نجد، الأصدقاء الكُتاب والباحثين، عن هذه الشَّخصية التي تجمع بين الوهم ومرارة الواقع. قيل لي: إن صالح المنصور مازال يتأبط النُّصوص الماركسية وسط مدينة الرِّياض، ويحمل المنشورات التي تحث على المساواة الطَّبقية، يحملها مِنْ دون اعتراض مِنْ شرطة أو أمن، بعد أن ثبت لهؤلاء أن الرَّجل يتصرف بسجيته، لا يحمل نية ثورة ولا يعمل على إنشاء تنظيم، ناهيك مِنْ أن الظَّرف ما عاد يحفل بتنظيم شيوعي سري، فالإرهاب الدِّيني جمع الأضداد، فهو الأخطر في النِّهاية قولاً وفعلاً.

مِنْ حيل صالح المنصور في إشاعة ما لديه مِنْ أغلفة كتب، أو أبيات شعر، مثل قصيدة محمد مهدي الجواهري (ت 1997) الدَّالة على الأممية «حببت النَّاس»، أنه كان يضعها داخل صندوق

سيارته المتهالكة، ويتركه مفتوحاً، لعلَّ ماراً يسرقها فتشيع بهذه الحيلة. وصل الحال إلى أن يداهم الشُّرطة ولا تداهمه، وكأنه يطلب اعتقاله! فلما يتحدث مع الشُّرطي البسيط بأمر الصَّراع الطَّبقي، ودورة التَّاريخ، وما أن يحدثه عن منجزات براغ(عاصمة جيكوسلوفاكيا الاشتراكية)، وكيف تُحل هناك الأزمات المعضلات، يفغر الشُّرطي فاه، ويحاول التَّخلص من تلك المفردات المبهمة.

حصلت على رقم هاتفه من أحد الكُتاب، واتصلت به، وسمع أنني أبحث عنه، ثم قيل لي: إنه يبحث عني في أروقة المهرجان. بعد الغداء وإذا برجل يلبس القميص والبنطلون ويشد الرباط الأحمر، الذي يشبه الحبل أكثر مِنْ كونه رباطاً، مِنْ دون اعتناء بثيابه وهندامه بشكل عام، وربما أراد بهذا المظهر التَّعبير عن شخصية البروليتاري.

تقدم مني وقال: أنا صالح المنصور. التقيته وتكررت اللقاءات، فقد أثار في دواخلي زمن المخاطرة مِنْ أجل الفكرة، وذكرني بعناوين كتب ومصطلحات غلبت عليها، أو حلت محلها، كتب ودراسات التُّراث والتَّاريخ والفقه والأديان والمذاهب، حتى بدت كلماته كأنها تأتيني مِنْ فوهة بئر عميقة.

لكن العجب، وجدته مأخوذاً إلى الهامة بما قرأ وسمع وشاهد، عند زيارة براغ وموسكو، مِنْ قبل، وما زال يحاول التَّبشير

بحلولهما لأزمات السَّكن والنَّقل والعمل، يثق بدورة التَّاريخ ثقة مطلقة، وانتظار الطَّبقة المنقذة يوماً ما. قدم لي نسخة مصورة من كتاب «ديالكتيك الطبيعة» لفردريك أنجلس(ت 1895)، قائلاً: هل قرأته! فقلت: قرأته قبل أربعين عاماً. بالفعل مازلت أحفظ منه الكثير، وهو أحد الكتب التي تفتح العقل على فضاء الجدل بشأن الفلسفة والعلوم.

لا يرتدي صالح المنصور العقال والكوفية (الشماغ)، ولا الثَّوب الأبيض، وهو لباس بلاده الرَّسمي وغير الرَّسمي، حاملاً بيده كيساً، ملأه بخليط مِنْ القصائد، والخواطر، والكتب المستنسخة، وديالكتيك الطَّبيعة واحد منها. تحدث معي بأمر دورة التَّاريخ التي يثق بدورانها وما يسفر عنها مِنْ نتائج، وأنه ليس ذلك الثَّوري العنيف، بل حركة الزَّمن ستحقق له المنال بهدوء. يقتحم المجالس، ويبتسم له الجميع ويحيونه، وهو اعتاد على مجالسة الخصوم الودودين معه، مِنْ الذَّين يعدونه صدىً لماض تولى، على المستوى المحلي بالجزيرة العربية، وعلى المستوى الدَّولي.

بيد أنه يرد عليهم بمثال نجاح الاشتراكية بأمريكا اللاتينية اليوم، حيث عادت تلك القوى عبر الانتخابات، وفنزويلا مازالت مثالاً، عليهم الكف عن تحميل النَّظرية أخطاء السِّياسة، فالمشكلة ليست في النَّظرية، فهي لا تخطأ، إنما تطبيقاتها السِّياسية

والحزبية هي المشكلة! أما الجدل الدَّائر حول التَّجديد وتغليب لغة الحوار ببلاده فيصفها، مثلما تقدم الحديث، بحركة التاريخ وفعله، وأنه واقع جبري التَّحقق.

غير أن اليساريين الآخرين، ممَنْ كان منتظماً أو سواه، لايبدون الارتياح لشخصية صالح المنصور، على تقدير أنه المثل الفاشل، فبسلوكه هذا يتحوَّل ما كان جاداً وبُذلت الأرواح مِنْ أجله إلى سخرية.

سلمني المنصور بطاقته التَّعريفية عدة مرات، واحتفظ بنسختين منها، وهي ملأى بالتَّعريفات: أبو نضال، باحث في الفكر، ناشط في حقوق الإنسان، شاعر، كاتب، من مؤسسي نقابة العمال ومكتبة الحرية، وأنصار المرأة، مع عبارة: تحت التأسيس. ثم منسق خيري في الزَّواج، الأعزب أولاً! أما ظهر البطاقة فملأه بعبارات: حرية التِّجارة تعني: الفوضى! الغلاء! التَّفاوت الطَّبقي يساوي: الفقر! الجرائم بأنواعها، نعم للجمعيات! ويختم بعبارة: لا مرسى للحب باستغلال الإنسان للإنسان!

أهدى لي المنصور رواية «الشُّيوعي الأخير»، التي كتبها الأديب السعودي إبراهيم الوافي، وأشار إليه باسم رضا، وحينها نشرت الصَّفحات الثقافية في الجرائد السعودية عن أبي نضال أنه هم بمقاضاة الرُّوائي، لكنه قال لي: سيكتفي بالرد على

الرواية برواية: «شيوعي في الرِّياض»! وكأنه يشعر بضرر من لفظة الأخير. وعندما نسي كتابة اهداء لي على الكتابة عاد في اليوم الآخر وسلمني الإهداء مكتوب على ورقة منفصلة قائلاً: ضعها في الكتاب.

لم ألحظ جنوناً ولا غروراً على الشُّيوعي الأخير صالح المنصور، مثلما شاع عنه، بقدر ما أخذتني الدَّهشة مِنْ تخشبه وتكوره منفرداً على أفكاره، لا رجاء مِنْ انشطاره أو تفرعه، وسط بيئة خرساء صماء لا تجادله، ومع ذلك يرفض أن يكون الشُّيوعي الأخير، لأنه لا يدعيها!

وجدته، عبر الفيسبوك، بعد وفاة السَّفير والشَّاعر غازي القصيبي (2010) يرد على الكاتبين عن دور القصيبي في الثَّقافة والمجتمع السُّعوديين بالقول: إنه لم يؤسس نقابات وجمعيات اجتماعية عمالية. فعلق عليه أحدهم: خلينا يا صالح نصوم رمضان بسلام وعافية!

الزُّبيري ناصر الحزيمي

إحدى الصَّداقات تأصرت بيني وبين المثقف والباحث ناصر الحزيمي، وكان مِنْ أعوان جهيمان العتيبي (أُعدم 1980). فقبل سنوات اقتنيت كتاباً خفيف الظِّل وجزل العبارة، موسوماً بعنوان «حرق الكتب في التُّراث العربي»، وبعدها اطلعت على مقابلة مع الحزيمي، في مجلة المجلة، مِنْ دون معرفتي أنه هو صاحب الكتاب، حيث بقي في الذَّاكرة اسم الكتاب فقط، قرأت المقابلة ثم شاهدتُ ما بث على شاشة قناة «العربية» مع الشَّخص نفسه.

ولا أدري إذا ما كان الحزيمي هو الشَّاهد الأخير على حركة جهيمان (نوفمبر 1979)، التي مرت ذكراها الثلاثون (نوفمبر 2009). سُجن خلالها، وشفع له أنه لم يقتحم الحرم مع المقتحمين، لأنه لم يكن يقتنع بالعنف سبيلاً، وغير مستوعب لقصة ظهور المهدي، وهو حسب تشخيص جهيمان اسمه محمد ابن عبد الله القحطاني، الذي قُتل في المواجهة قبل القبض على جهيمان وجماعته. لكن ما أُوخذ على الحزيمي هو عدم تبليغ

السُّلطات، مع معرفته بتوقيت الاقتحام، وأرى في موقفه هذا كرهاً للخيانة على تنوع أشكالها.

بعد اللقاء بناصر الحزيمي تبددت لديَّ الشُّكوك في أن الرَّجل سرد قصته مع جهيمان بعد صحوة فكرية؛ أو بتأثير سنوات السِّجن، بل أحسب أن التَّبدل بهذا العمق لا يحدث إلا بوجود استعداد مبكر له، وشكوك سابقة، تتراوح بين تردد وإقدام. وشخص مثل الحزيمي ليس لديه استعداد إيذاء نملة، فكيف بقضية كبرى قد تذهب بأرواح المعتمرين والمصلين، ولا يجدها تؤدي إلى غرض ينفع الدِّين والبشرية، سوى التَّمرد بأدوات الماضي، وإذا فاتشتهم فيها، أجابوك أنها قضية إلهية، وليس لأحد الرَّد على مسألة تُنسب إلى الله! هذا ما لم يتمكن الحزيمي من إدخاله إلى عقله.

أراه معتزلي المنطق، العقل قبل الإيمان بفكرة أو تبني لعقيدة، أو على حد مقولة الاعتزال: «الفكر قبل ورود السَّمع»، التي تقف معاكسة تماماً لما يُسمع مِنْ قادة الانتحاريين الرَّاغبين بالجنَّة عبر قتل الأبرياء: «نفذ ولا تناقش»، أو على طريقة الأحزاب الشُّمولية بما فيها الإسلام السِّياسي: «نفذ ثم ناقش». هذا، ولا تعني القراءة مِنْ نمط فكري واحد، أنها تحصن القارئ مِنْ التَّشكيك ومناظرة النَّفس داخلياً، فالعديد مِنْ المتحولين إلى رحاب الليبرالية كانوا قد أكثروا القراءة في رسائل جهيمان، وفي

أمهات التَّشدد، لكن ما حصل أنها بما فيها مِنْ إلغاء العقل دفعتهم إلى البحث عن العقل.

لاحظت ناصر الحزيمي ببهو الفندق، فتقدمت منه وسلمت عليه، وسألته أظن أنك الحزيمي، قال: بدمي ولحمي وأنت فلان، سرني كثيراً أنه يعرفني مِن قبل. وأخذ يسرد لي ما ذكره في المقابلة، وما جرى مِنْ قصته مع جهيمان. كان دقيق العبارة، وأحياناً يبدو لك أنه شارد الذِّهن، وربُّما أثرت عليه سنوات السجن، ولكنه ليس هكذا، إنما يسكت قليلاً ليستدرج ذاكرته وينشطها، فيتبسط مِنْ جديد بالحديث ويتدفق بتفاصيل دقيقة. شعرتُ مِنْ اللقاء الأول بارتياح عميق تجاه هذا الرَّجل.

في اليوم الآخر أهدى لي كتابه «حرق الكتب...»، فقلت له: لقد اقتنيت هذا الكتاب عند صدوره، ولم أعرف أنه لك، لكني سأحتفظ بهذه النِّسخة طمعاً في الإهداء الثَّري. ومن لحظتها لم يمر يوم مِنْ أيام موسم الجنادرية إلا وأنا على موعد مع ناصر، وطوال وجودي بالمملكة، الذي استمر لأكثر من أسبوعين، كان يتصل بي ليسأل إلى أين وصلت، وماذا رأيت وما سأرى بعدها مِنْ الأمكنة.

انسجمتُ مع ناصر الحزيمي القادم مِنْ مدينة الزُّبير، حيث تكاد تتزامن هجرتنا (1976 و1979) مِنْ العراق، لكن ماذا

لو التقينا، مِنْ دون المرور بنكساتنا ومراجعة ثوابت عقائدنا! هل كان يُطيق مدحي لسُجون الاشتراكية، على أنها لتأديب المنشقين! أو هل قَبلتُ منه فكرة حصر الدِّين والدُّنيا بوصايا السَّلف، مثلما ارتفع بها جهيمان إلى حدِّ الثَّورة! لا أظن ذلك.

فبسلفية أيضاً صرخ أحد شعرائنا اليساريين نادباً راثياً جهيمان: «يا جهيمان حدق...»، قالها بلا نظر في ما كان يفكر فيه المرثي، وماذا يَعد مِنْ ظلامية وقسوة، وهل ستجده أقل مِما يريد تطبيقه بن لادن وأيمن الظَّواهري. أقول ربما لهؤلاء حقوق اعتراض أو تحقيق عدالة وحث على بناء وتوسيع خدمات، لكنهم في كل الأحوال ليسوا البدلاء، فالنماذج التي قدموها في إماراتهم بأفغانستان والسُّودان والعِراق ملأت الأرض بالكراهية!

أقول: ليكن ما بيني وبين الحزيمي ما كان بين سُليمان الدِّخيل، السُّنَّي تلميذ الآلوسي، وهبة الدِّين الشَّهرستاني، الفقيه الشِّيعي صاحب العمامة السَّوداء، مع عدم وضع نفسي نداً لهبة الدِّين، الأول كان يدير ويطبع مجلة الثَّاني «العِلم» الصادرة بالنَّجف 1910! وكم لاحظت على صفحاتها التروج لجريدة الدِّخيل «الرِّياض»، فما أجمل الدِّخيل والشَّهرستاني، وما أبغض الطَّائفيين!

أحسب قياس المودة والإيثار بين الكتاب وأهل الثَّقافة هو التَّنازل عن كتاب مِنْ المكتبة الشَّخصية، لعلمي كم يكون الكتاب

عزيزاً وغالياً، مهما كان عنوانه ومهما قلت أهميته، وعلى هذا القياس مِنْ الإيثار لما سمع مني الحزيمي البحث عن قضايا المهدي والمهدويين، أتى في اليوم الآخر حاملاً معه مِنْ مكتبته الشَّخصية كتاباً بمجلدين، ولما رفضت أخذه، لتقديري الحال، قال: «أراك بحاجته وأظنك قد لا تجده بسهولة»! ثم قال: «صار كتابك وانتهينا».

لقاء مصالحة عراقي

كان الحضور العراقي في موسم الجنادرية الخامس والعشرين كثيفاً أكثر مِنْ المواسم السَّابقة على ما يبدو، حضره مِنْ مؤيدي الحكم الحاضر والحكم السَّابق، مِنْ داخل العراق وخارجه، واستمرت الحوارات وكأنها تمهيد للمصالحة، التي يُعلن عنها داخل العراق، وهي غائبة مغيبة.

حضر هذا العام مِنْ داخل العراق اتحاد الأدباء، ممثلاً: بالنَّاقد فاضل ثامر، والتَّربوي حسين الجاف، والباحث ناجح المعموري، والشَّاعر طالب عبد العزيز، والنَّاقد ياسين النِّصيَّر. ومِنْ الخارج حضر الفقيه الشَّيخ أحمد الكبيسي، والصَّحافي المعروف حسن العلوي، والأكاديمي والسِّياسي غسان العطية، والشَّاعر يحيى السَّماوي، والحقوقي عبد الحسين شعبان، والإعلامي سعد البزاز، والشَّاعر فوزي كريم، والرَّسام صادق طعمة، والكاتب هارون محمد، والإعلامي مؤيد عبد القادر، والأديب والأكاديمي عبد الرِّضا علي، والشَّاعر هاتف الجنابي، والأكاديمي يعقوب الخميسي.

كنا مِنْ مختلف المناهل، يجمعنا وادٍ واحد هو العِراق، ممَنْ ساهم بإقصائنا سابقاً وممَنْ ظل على صلات معنا، لكن جمعتنا طاولات الحوار غير الرَّسمي، وتكاشفنا بعد أن كنا لا تجمعنا جادة ولا رصيف. لقد بالغنا بإيذاء بعضنا بعضاً بالقول والفعل، كلٌّ ينطلق من منهله، وما بين المناهل جرت دماء، وتكدست جثامين، وتقطعت أرزاق.

أول مرة نلتقي، ولا أدعي أننا أهل حوار مذ نشأتنا، أو غسلنا كل أدران الخصومة، لكن اتضح مِنْ هذا الوجود المختلف أن الحوار والمصالحة ممكنة، مهما بلغ الخصام وتعمقت العداوات، لسبب بسيط أن القادمين من داخل العراق، وأنصار النِّظام الحالي وأعوان السابق، لم يجعلوا ما بينهم والعراق حاجزاً، ليس هناك مَنْ طعن بما يجري بالعراق من الساسة إلى حد الإلغاء، وليس هناك مَنْ حمل الموجودين وزر ما جرى من دماء ومقاتل.

لعلَّ الصَّحافي مؤيد عبد القادر، أبو بعث، كان أكثرنا إثارةً وتهدئة بالوقت نفسه لحرارة النِّقاش، وعلى وجه الخصوص عندما تنبش حوادث الماضي، يطلقها نكتة وضحكة كأن لسان حاله يقول: ها نحن مازلنا جميعاً نتحدث مِنْ خارج الحدود! وعندما قلنا له: أما أتيتم بقطار أمريكي في 8 شباط انقلاب 1963؟! قالها بصوته الجهوري الحاد والبغدادي القح: «لعد تردونا نجي مشي»!

ها نحن مازلنا نضيف أسماء من قوافل القتلى للقوافل السَّابقة، التي قضت بأيدي الجزارين السَّابقين وما يقضي بأيدي الجزارين اللاحقين، مِنْ عصابات وميليشيات وجماعات ترى الجنَّة تحت ظلال السُّيوف!

حملنا مؤيد عبد القادر كل ما جرى لبعضنا مِنْ مصادرة رأي، وعدم ضمان الحق في الحياة، مِنْ دون النَّظر إلى ما كان يعانيه مؤيد نفسه وغيره، الذَّين أهينوا وطردوا وأعدموا، فليس لنا إنكار أن ما جنته السُّلطة السَّابقة بحق البعثيين أنفسهم. لكن الضَّمائر لم تخف ما اُعترف به لمؤيد، الذي صار صديقاً مِنْ أول مجلس على الرَّغم مما باعدنا واختصمنا لأجله.

فلعقائديته سمَّى مؤيد عبد القادر ابنته «بعث»، وعمرها الآن يفوق الثَّلاثين، والأسماء عندنا بالعراق حسب التَّحزب والعقائد، فأسماء أبناء البعثيين والقوميين عادة تكون: عروبة، أو عرب، وحدة إلخ. أما أسماء أبناء الشِّيوعيين فهي عادة: يسار، كفاح، فهد، سلام، عادل، نسبة إلى أمين عام الحزب سلام عادل (أُعدم 1963)، ومنهم مَنْ سمَّى غوركي، وستالين، وجيفارا.

يذكر أنه في الحرب العالمية الثانية (1939-1945) كان الشَّارع العراقي يغلي، بين مؤيد لألمانيا النَّازية، مِنَ القوميين، ومؤيد للاتحاد السُّوفيتي والحلفاء، مِنَ اليساريين عامةً، فحصل

أن أطلق أحدهم على ولده اسم هتلر، وآخر سمَّى ابنه لينين، غير أن دائرة النُّفوس سمحت بتسجيل هتلر، ولم تسمح بتسجيل لينين. هذا ما سمعته مِن أحد المعاصرين لتلك الحوادث عندما كنت أدرس (1973) بالأعظمية شمال بغداد.

أما الإسلاميون مِنْ الشِّيعة فأكثروا من تسميات: حوراء، وزهراء، ورقية، ومحمد مهدي، ومنتظر، بينما أحد الإسلاميين السُّنَّة سمَّى أولاده: سيَّد (نسبة إلى سيد قطب)، وابن تيمية، ومعالم، وظلال (نسبة إلى كتابي سيَّد قطب: معالم في الطريق، وفي ظلال القرآن). بطبيعة الحال، ونتيجة للتَّشنج السِّياسي والاجتماعي قد يتعرض حملة هذه الأسماء للإحراج، حين تكون الجولة ضدهم، وقد يعتقلون على الأسماء، ولا ندري كيف كان حال ابنة صديقنا أبو بعث، مع اجتثاث البعث!

بل كان مِنْ مساخر الحزبية والسياسة العراقية، أنه في فترة مِنْ الفترات، مثل 1963، أُعتقل النَّاس بسبب الألوان، حيث امتنع باعة الخضار أن يشيروا إلى الطَّماطم بالحمراء، وامتنعوا أن ينادوا على بضاعتهم مِنْ الرَّقي (البطيخ)، مثلما جرت العادة، بالأحمر شرط السَّكين. لكن ما ليس بالحسبان أن يصل الحال ويؤخذ رجل ويُحقق معه لمجالسته للمحسوبين على الحزب الشِّيوعي، ولأن بشرته كانت مائلة للإحمرار، أُخذ يُضرب ويُركل

مع نفيه أن يكون شيوعياً في يوم مِنْ الأيام، فما كان مِنْ المحقق إلا القول له مع توجيه ضربة عنيفة لوجهه: «كيف لا تكون شيوعياً ووجهك أحمر مثل وجه خورشف»! وهذه الحكاية ليست مِن نسج الخيال بل حصلت مع ابن عمي غازي مزهر الخيُّون حينها.

كان لقاء الجنادرية، غير المخطط له، لم يجمعنا بخصوم الأمس، لنجعل أمر المصالحة مصيراً لا مفك منه فحسب، وإلا بقيت البلاد غارقة في ظلامها الدَّامس، والكائنات اللعينة تعتاش على الصِّراعات القاتلة، بل جمعنا نحن أهل الطَّريق الواحد في المعارضة السَّابقة، وما قادت الخلافات مِنْ نسج للكراهية. لذا لا بد مِنْ النَّظر في ما يُغلظ القلوب ويجفف الأرواح مِنْ ليونة المعشر، ويسعى لتأبيد الخلاف، ويُخرج الأمر مِنْ حدود مسؤولية القاتل عن دم المقتول إلى سحق الجميع بذريعة الانتماء السَّابق. وحقاً ما ورد في الكتاب: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: 34).

حزب
اتحاد أُدباء العرب

بعد لقاء العراقيين من أهل الثَّقافة والفكر، هيأت الجنادرية، بشكل غير مقصود، فرصة للقاء بين أدباء العراق وأعضاء مِنْ اتحاد الأدباء العرب؛ فالاتحاد الأخير مارس مع أدباء العراق ما مارسته الأحزاب الدِّينية والجماعات الظلامية ضد خصومها، وهو التنجيس في الطعام كأقصى درجة مِنْ الكراهية ضد الآخر، ولعلَّ نجاسة الطَّعام أَهون بكثير مِنْ نجاسة الكلمة، لذا قال السَّيد المسيح: «ليس ما يدخل فم الإنسان ينجسه بل ما يخرج منه»! هذا ما مارسه اتحاد الأدباء والكتاب العرب ضد الأدب والثَّقافة العراقيتين، حيث نجاسة الأدب العراقي بزعمهم، لأنه منتج احتلال وغزو، على حد تقييمهم المتخشب. غير أنني أرى صوت الأدب العراقي هو صوت الشَّاعر العباسي أبي أحمد الكاتب (الثَّعالبي، يتيمة الدهر):

لا تعجبنَّ مِنْ عراقيٍ رأيت لـه
بحراً مِنْ العلم أو كنزاً من الأدبِ
وأعجب لمن ببلاد الجهل منشؤه
إن كان يفرق بين الرَّأس والذَّنبِ

لا استشهد بالكاتب الشَّاعر تعالياً أو حطاً مِنْ منتج بقية البلدان الهائل، لكن معاملة اتحاد الأدباء العرب للأدب العراقي فرضت عليَّ التَّذكير! لا يخفى أن مثل هذا الاتحاد العربي لا شأن له بالأدب والثَّقافة، إنما شأنه شأن سياسي، فلو كان اتحاداً لأُدباء وكُتاب لنبس بكلمة شجب لما نزل على أدباء وكُتاب العراق مِنْ قبل، وسأل عن أحوال هؤلاء، ولتوقف عند قائمة النِّظام السابق، التي صنفت مثقفي العراق بين موالٍ وعميل.

لسأل عن الذَّين قتلوا والذين اختفوا، والذين أهينوا وجاعوا! لذا يصعب التَّعامل مع مثل هذه المؤسسة حسب أجندتها، ونظرتها إلى العراق بأنه رافع راية العرب، على حساب شعبه، وإن كان بموت شعبه! فالموت في سبيل القضية المركزية، قضية فلسطين، هو المطلوب! فعلى رؤساء اتحاد الأدباء العراقيين، فاضل ثامر والفريد سمعان وغيرهما، سل السُّيوف، وإلا هم خونة لا يستحقون عضوية اتحاد أدباء العرب.

طُرحت فكرة التَّفاوض مع قيادة اتحاد الأدباء العرب، ووجدت فيها شيئاً مِنْ الاستجداء، وبلا شعور وقفت أمام حلقة

اللقاء، وسط مقهى الفندق، وخاطبت أدباءنا أمام العرب: ما قيمت الصِّلة باتحاد أدباء لا يُعنى بالأدب! ومَنْ هم حتى نتوسل إليهم! وما الحاجة لهم، وهل كان الجاحظ(ت 255 هـ) وأبو حيان التَّوحيدي(414 هـ) وعمالقة الأدب والفكر غير عراقيين! ولأني لست مكترثاً باتحاد مثل هذا لم أكن أعلم أن عقلة عرسان قد تبدل بآخر، كان بين الحضور! لكني سألته، عندما قال ملاطفاً زميلنا مؤيد عبد القادر بالقول: لين رأي صاحبك! وأشار نحوي، فسألته: منذ متى أصبحت رئيساً! قال: منذ أربعة أعوام ونصف. وعندها قلت: ألا يكفي هذا الزَّمن لمراجعة الموقف!

على أية حال أثناء الاجتماع طلب وفد اتحاد الأدباء العرب ورقة براءة، واعتذار وتعهد وشجب للاحتلال! لذلك انفض بلا تحقيق غرض، وعندها لم أندم على عدم متابعتي لأخبار تلك المؤسسة السِّياسية قبل أن تكون أدبية وثقافية، فالوجوه نفسها تريد الدَّم العراقي يثغب، والمال العراقي يسيل بأيديهم تحت شعار: تحرير فلسطين!

وإذا كانت سواعد الفريد سمعان وفاضل ثامر وناجح المعموري، وممَنْ اهلكتهم لدكتاتورية والحروب والحصار وما أسفر عنها حالياً، قادرة على حمل السُّيوف لتلك المهمة فليفعلوها؛ وعندها سيعترف لاتحادهم برد الاعتبار، ويمنحهم شرف العضوية، ويُطهر نتاجهم الثَّقافي مِنْ نجاسة الاحتلال، على حد زعمهم.

وإذا لم يحصل ذلك فأدباء العراق خونة أنجاس حسب فقه المعاملات لاتحاد أدباء العرب! ربما إثر لقاء الجنادرية حضر الزَّميل النَّاقد ياسين النصَّير اجتماع أو مؤتمر اتحاد الأدباء الأخير بالقاهرة، على ما أظن، لكنه فشل في إعادة عضوية اتحاد أدباء العراق إلى إتحاد أدباء العرب، فالمطلوب طرد الاحتلال أولاً!

ندوة
الثَّقافية الفضائية

في ختام مهرجان الجنادرية دُعيتُ إلى ندوة تلفزيونية، عبر الفضائية الثَّقافية السُّعودية، كنا ثلاثة إلى جانب سفير الجامعة العربية بالولايات المتحدة الأمريكية كلوفيس مقصود، والباحث محمد رضا نصر الله، أدار النَّدوة الإعلامي السُّعودي محمد بن عبد الله بودي. كان الغرض من النَّدوة تقييم مهرجان هذا العام، وما يخص مبادرة الحوار الدِّيني والثَّقافي، الذي شغل الموسم.

كان مقصود دبلوماسياً معروفاً صاحب حنكة ومؤدب ومتواضع للغاية. سمعت عنه كثيراً وقرأت له أكثر، ولم ألتق به إلا هذه المرة، وقبل التَّعارف المباشر، في النَّدوة، صادفني في أحد ممرات البناية التي عُقدت فيها ندوات المهرجان فسألني عن كيفية استلام رسالة عبر الموبايل، وكنت أظن أن الحياة بأمريكا قلصت الفجوة بينه وبين التَّقنيات المتطورة سراعاً، لكني اكتشفت

أن ما بعد السَّبعين أو حتى السِّتين، من غرب وشرق، الغالب منهم حافظ على تلك الفجوة، وليس بمقدوره ردمها إلا نادراً.

لخصت تلك النَّدوة فكرة أن الحراك الثَّقافي والإقبال على الحوار، في ما يخص المذاهب والأديان والثَّقافات وما يدور حول المرأة، كانت بسبب وجود نضج ثقافي واجتماعي ملموس، مثله مثقفون ودعاة، عبر الحوارات والكتابة ووسائل شتى، وحتمت طرحه بهذه القوة الظُّروف العالمية، وتحول الأرض إلى قرية صغيرة عبر وسائل الاتصال البالغة التَّطور، لكن ذلك يمكن أن يؤجل لسَّنوات، ولا يظهر بهذا الاتساع لولا ظهور الحامي والمشجع، مثلما هو الدَّور الذي يلعبه الملك عبد اللّه بن عبد العزيز، وقد يكون هناك توازن أو تبادل مواقع بين العبارة المأثورة، السَّابقة الذكر: «النَّاس على دين ملوكهم» ومعكوسها «الملوك على دين شعوبهم». والمقصود هنا بطبيعة الحال ليس الدِّين، إنما الفكر والتَّوجه الاجتماعي.

بعد الندوة طاف بي الباحث خالد المشوح في شوارع وطرقات الرِّياض، ما لم أصله بالجولات السَّابقة، واستقر الرأي أن نذهب إلى مكان الشِّيشة، ومع أني لم أدخنها، ذهبنا إلى هناك، وهو مكان في أطراف الرِّياض، ويبدو مكاناً مهجوراً، يُتسلل إليه تحت جنح الظَّلام، يجتمع هناك الشَّباب مقبلين على الشِّيشية، يأخذونها جالسين على الأرض، يغنون ويتجادلون ويبلع جوف الليل صخبهم.

قال لي خالد حاول تدخين الشِّيشة لعلها تعجبك، فقلت له لي معها موقف صعب كدت أموت بسببها، مع أني تناولتها للتمويه بإحدى مقاهي الكرخ المجهولة. يومها (ديسمبر 1978) كنا مختفين عن أنظار الأمن وكان الصَّديق القديم جاسم محمد عيسى، عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي حالياً، حيث استمر بما بدأ، وانقطعت أنا عما استمر به وارتقى إليه، قبل أكثر من عشرين عاماً.

جلسنا في المقهى التي لا يقدم صاحبها سوى الشِّيشة، وكي لا يثير وجودنا الرِّيبة، باعتبارنا غرباء عن المكان ومنقبين. طلبنا واحدة لي وأخرى لجاسم، وما إن وضعتها في فمي تحشرج دخانها بصدري، وضاق نفسي وعلا سعالي، فتقدم صاحب المقهى مني قائلاً: هل أخذتها من قبل! قلت له والكلمات تخرج بصعوبة: لا. فقال غاضباً: وما وازك عليها. فيا خالد لا أريد أن أكرر المشهد! مع أن أخذها في ذلك المكان، في أطراف الرِّياض وتحت جنح الليل، له طعم خاص، يُذكر بحلاة العمل السِّري، بعد تحوله إلى ذكريات بطبيعة الحال.

الاستجارة بالمعتزلة

مِن المعلوم أن الهيمنة الدِّينية واضحة المعالم بمدينة الرِّياض، حتى تحولت إلى عُرف سائد وتقليد دائم، مع ليبرالية ظاهرة المعالم يخوض متقدموها الصراع الاجتماعي بصبر. وهنا أتوقف قليلاً عند المشائمين مِن ظاهرة الليبرالية، أو المستخفين باللبراليين عموماً داخل المملكة العربية السُّعودية، منها لعدم فهم ما تعنيه الليبرالية ومنها مواقف شخصية، تجاه هذا الليبرالي أو ذاك.

أرى أن الليبرالية سلوك ومعاملة، وليست حزباً أو منظمة أو جماعة أو عقيدة وآيديولوجية، بل هي تحرر مِن العقائد والآيديولوجيات، فربما لفلان ممارسة ليبرالية في مجال وضدها في مجال آخر، فلا يجب أن تؤخذ ككتلة متماسكة يجمعها رأي أو تنظيم، وهي مِن حق المتدين، غير المسيس للدِّين، الذي يصلي ويصوم ولا يرى تطبيق ذلك مِن حقه على الآخرين، فترك الإنسان حراً في علاقته بربِّه، هي الليبرالية بعينها. بمعنى أنها الاعتراف

بالحرية الشخصية وبالسياسة غير المقيدة بآيديولوجية أو عقيدة دينية كانت أو وضعية. هذا فهمي الخاص والبسيط لليبرالية وعذر لمَن يخالفني الرأي.

لقد شهدت الصِّراع الحاد بين المطاوعة، أصحاب الثياب القصيرة واللحى الكثيفة والَّذين خلت رؤوسهم مِن العقل، ومَن يتطلب الحرية والانعتاق مِن وصاياهم، داخل معرض الكتاب بالرِّياض (مارس 2011)، وقد بث صورة أحدهم يتوعد وزير الثَّقافة والإعلام الشَّاعر والأديب والإنسان الدُّكتور عبد العزيز محي الدِّين خوجة، رافعاً سبابه بوجه، محتجاً على ما حوى المعرض مِن كُتب المعرفة. كانوا يحاولون سوق المشترين إلى الصَّلاة، ويأمرون النِّساء بإخفاء خصلة الشَّعر، أو عدم الوقوف كثيراً مع الباعة ومؤلفي الكتب.

أتذكر أتت إحدى الفتيات وابتاعت كتابي «بعد إذن الفقيه»، وطلبت توقيعي عليه، فتدخل أحدهم وقال الصَّلاة الصَّلاة، وأمرها باتقان الحجاب، وظل يتكلم وهي لم تعطه اهتمام، ثم تقدم نحوي وأمرني بزر زرار القميص عند الرقبة. كانت المعركة شديدة مع تركي الدِّخيل، ضد برنامجه إضاءات وضد ما حوت داره «مدارك» ومركز «المسبار» مِن كتب، وصلت إلى محاولتهم ضربه، فكتابه عن تحول سلمان العودة مِن التشدد إلى العقلانية طبع خلال

المعرض عدة طبعات، وكذلك كتاب «الدُّنيا امرأة». وفي واحدة مِن مضايقاتهم لي مرَّ أحد المسؤولين الحكوميين وقال لي: لا تسمع كلامهم فقد صدرت أوامر توصي بعدم تدخلهم في شؤون النَّاس! لكنهم مع ذلك استمروا بتنفيذ واجبهم الإلهي، حسب ما يدعون.

كان الزَّحام في المعرض على كتب مثل «لا تحزن» للشيخ عائض القرني، وهو سلسلة مِن «لا تيأس» وغيرها، وتلك التي تُذكر بكتب مِن أصناف: «دع القلق وابدأ الحياة»، وهي كتب تعتمد بالأساس على الجمل القصيرة كوصايا، ليس فيها جهد بحثي أو معانات كتابة، مملوءة بالآيات والأحاديث والعبرة. وينبيك الزِّحام عليها بخواء ثقافي مفرط، شأن ذلك شأن ما يسري بالعراق مِن أحاديث الشَّيخ عبد الحميد المهاجر، أقرب إلى السحر مِن المنطق. لكن بالمقابل كانت الظَّاهرة الليبرالية واضحة، وتستطيع رصدها في معرض كتاب الرِّياض نفسه، وشراهة الإقبال أيضاً على اقتناء الكتب العلمية والنَّاقدة للمجتمع وتوظيف الدِّين في السِّياسة.

وجدت نفسي عند توقيع كتبي «بعد إذن الفقيه»، و«ضد الطَّائفية» و«جدل التَّنزيل» وغيرها إلى جوار الكابينة التي يوقع فيها الشَّيخ عائض القرني كتابه «لا تيأس»، والذي ثارت حوله ضجة بأنه كان انتحل نصوص له مِن إحدى الكاتبات. وهنا عرفت انشغال

النَّاس بمحاولة الحصول على دواء لليأس، كان الجمهور يتدافع نحو الطَّاولة التي يوقع عليها القرني كتابه، بينما كانوا يأتون نحوي فرادى مِن المثقفين، وأحدهم التقط صورة للمشهد، والمفارقة. ربما كان رواد الكابينة التي أوقع فيها كتبي مِن الليبراليين، الذين ينظرون في المعتزلة وجدل التنزيل، ويحاولون إيجاد عون لهم ضد الطَّائفية، لكنهم كانوا موجودين وشراء كتاب جدل التنزيل مثلاً الذي مُنع في آخر يوم مِن المعرض يُكلف البائع والمشتري شيء مِن القلق.

إن نسيت أشياء فلا أنسى ذلك الشَّاب الذي يصاحب زوجته، ويحمل عنها الأطفال كي يفسح لها المجال للنظر في عناوين الكتب. اقتربت نحوي وسألت عن العِراق ومثقفين عراقيين، وقد عملت ما يشبه الخواطر عن بعضهم، طلبت إلتقاط صورة معها وزوجها وأطفالهما. ولما أخذت كتاب «بعد إذن الفقيه» وتركا مكان الدار عاد مسرعاً يحمل الكتاب، قال: نسينا التوقيع، فطلب التوقيع باسم زوجته. قلت له: هنأكما الله، وبارك بك، أي نموذج أنت مِن النَّاس! ربما لم يكن ذلك الشَّاب يعرف معنى مفردة الليبرالية، فهو على ما يبدو جاء عوناً لزوجته، ولكن كيف تكون الليبرالية إذا مثل هذا لم يكن في مقدمتها، وتمثل بجوهرها، وحوله المطاوعة يذكرون بتفوقه وقوامته على زوجته، وأنها ناقصة العقل والدِّين، بل والمجتمع بأسره يحسب عليه أنفاسه في تصرفه الحضاري!

بعد هذا فكم كان سروري بشباب لا أصفهم إلا بالليبراليين، ألتقيت بهم بالرِّياض، وحببت إضافتها لطبعة الكتاب الثَّالثة، التي بين أيدي القارئ. في تلك الأجواء زارني ثلة مِن الشَّباب باحثين عن الفكر العقلي وما تبقى مِن رواسب المعتزلة، وما يمكن استنهاضه مِن جديد. بلد ننظره مِن على بُعد على أنه كتلة مِن التَّعصب، وكلُّ الأمكنة تؤخذ بما يُشاع ويظهر منها، أما الدَّواخل فلا تُرى إلا برؤية العين، فليس هناك محل في هذه الدُّنيا لم يتأثر بما حوله.

فالكتاب الممنوع يدخل عبر الإلكترون بلمح البصر، ولا تُحجب في ظل التقارب الأممي المعارف والثقافات على شعب مِن الشُّعوب، وفي ظل هذا التداخل لا وجود للعقائد النقية، والمؤثر منها يفرض وجوده، وكم سمعنا بالبكائيات مِن الحضارة الغربية على أنها المفترسة، مِن دون النَّظر بواقع الحال، وهل تتمكن المنطقة من الاستغناء عن الغرب في تدبير إبرة الخياطة مثلاً؟!

مِن هذا المنطلق، وفي ما يصلح مِن أفكار الماضي لخلق صناعة يُستغنى بها وقت الشِّدة؛ طلب الشباب الحديث عن التراث العقلي، وكانوا من ولادات (1989-1990). لم يدركوا الحرب بأفغانستان (بداية 1980)، التي يعود لها الإسهام في شدة السَّلفية وتحولها إلى الجهادية، ولا أدركوا أوان الثورة الإسلامية بإيران(شباط 1979)، والتي يعود لها بعث الروح في الإسلام

السياسي بالمنطقة بشطريه الشّيعي والسُّني، ولم يشهدوا اقتحام جهيمان للحرم المكي (تشرين الثاني 1979)، لكنهم وجدوا أنفسهم داخل الصراع، فمَن في أعمارهم فجروا أنفسهم ضمن تنظيم القاعدة، أو تحولوا إلى ضاغطين على النَّاس في ملبسهم وسلوكهم، وهم مِن قصار الثياب غاضبين متجهمين، وكأن ليس في الدِّين سوى التجهم.

قدم أولئك الشَّباب أنفسهم أنهم جماعة ليسوا مِن المجانبين للدين والتَّدين، ولا مِن المشتغلين في السِّياسة، وعرفت أنهم يتحدرون مِن مذاهب البلاد المختلفة، وهذا ما سكب دمعتي فرحاً أمامهم، اتفقوا على النَّظر العقلي. طلب الشَّباب اللقاء بهم. في بداية الأمر أحجمت عن القبول، فأنا ضيف والمثل يقول: «ياغريب كن أديب»، ظاناً أن الحديث عن العقل بمنحى المعتزلة في ذلك المكان غير محبذ. لكن إلحاحهم وتألق نظراتهم وهم في شرخ الشَّباب جعلني أمتثل، وكانت في قاعة مِن قاعات الجامعة، لا في وكر سري.

قدمني أحدهم، بما حصل عليه مِن سيرتي في غوغل، وأظهر لباقة في الخِطاب، وأخذ يُذكر بضرورة الانتصار للعقل، وأشاد بالمعتزلة، ثم فسح لي المجال، ولم يكن أمامي غير قرن الرقي الثَّقافي التاريخي بوجود تلك الفرقة، فالمثقفون والمفكرون

الكبار كانوا مِن أهل الاعتزال، وحسبك المعتزلة «تنظر إلى النَّاس بالعين التي ينظر بها ملائكة السَّماء إلى أهل الأرض مثلاً» (الحميري، الحور العين). واعتمادها المناظرة طريقاً للجدل، وكان مِن شروط التناظر أن المنقطع يمتثل لرأي القاطع.

تحولت المعتزلة، منذ وفاة واصل الغزال (ت 131 هـ)، وتولي عمرو الباب (ت 144 هـ) الرئاسة، كليةً إلى الفكر لا السياسة، تؤمن بالعقل مقابل النص، قادت مقالة نفي القدر شيوخ الاعتزال إلى القول بـ«خلق القرآن»، ورأيهم أنه كلام الله ليس قديماً، والسبب حسب شيخهم القاضي الأسدآبادي (ت 415 هـ) أنه نزل وفق مصالح العباد، وهم مرة اعتبروا المقالة ضمن العدل، وأخرى من التوحيد عندما ترتبط بالصفات. ذلك إذا علمنا أن أصولهم خمسة أبرزها: التوحيد والعدل.

سألني أحد الشَّباب بحماسة العمر: هل يصلح إعادة العمل بمذهب المعتزلة، ونحن نرى سطوة التفكير خارج عن العقل؟! أجبته: ما مضى لا ينتهي بجميعه، فالظواهر حلقات مترابطة تنفي بعضها بعضاً ويُضاف الجديد إلى القديم فيظهر في مبنى آخر. مقالات المعتزلة لا معنى لطرحها اليوم إلا لدارسة تاريخية أو مقدمات لقضايا أُخر، والسبب أنها ليست مطروحة مثلما كانت في عهد المأمون (ت 218 هـ)، فعندما يُجادل فيها الآن تبدو غريبة؟!

ومِن غير اغفال تعصب بعض شيوخ الاعتزال وتورطهم مع السلطة في المحنة المشهورة، ومن غير اغفال تهويلها والعنف ضدهم بالتكفير، إلا أن ما يمكن تمثله مِن المعتزلة هو سيادة العقل لمجابهة الظلام الدامس في العقول، واحترام ما وصلته الإنسانية مِن رُقي، فمثلما أُتهم المعتزلة بأنهم مقلدي اليونان يُتهم الاتصال الحضاري اليوم بالانبطاح للغرب.

بدا الشَّاب مقتنعاً إلا أنه أردف قائلاً: أما ترى الظلام والتزمت المعرفي يحيط بنا، ووفقه لا اعتقد ستكون لدينا حضارة وصناعة، إنما سنظل غارقين بما حولنا، وها نحن نعيش مستهلكين لا مبدعين! سأل شاب آخر سؤالاً فيه لهفة إلى عصر المعتزلة وإخوان الصفا (غير ساعين إلى مذهب فقهي ولا تعصب ديني) عندما قال: ألا تعتقد لو استمر لكانت الصناعة عندنا؟!

قلت: أظن ولا اعتقد -الظن أخف مِن الاعتقاد- إن الكمبيوتر وكل المتفرعات مِن علم الإلكترون لظهرت بالبصرة قبل واشنطن أو طوكيو، وتجارب الإبحار إلى الفضاء ربما كانت ببغداد لا بموسكو (كاكارين 1961)، حيث وجود المعتزلة، ودليلي أنهم سبقوا نيوتن (ت 1727) بالجدل في الجاذبية، واستخدموا التفاحة مثالاً، حتى كتبت بحثاً تحت عنوان «تفاحة المعتزلة» بما يُقابل تفاحة نيوتن الشَّهيرة.

استغرق اللقاء بهؤلاء الشباب، وكان عددهم حوالى الخمسة والعشرين، حوالى الساعتين، ولم تنته أسئلتهم ومداخلاتهم. وجدتهم يحاولون تحمل مسؤولية زمنهم فكرياً وثقافياً، ولم ألحظ فيهم تطرفاً، بما يُقابل أترابهم مِن الذين فشا في عقولهم وأفئدتهم التزمت إلى حد تغييب العقل، ووصل بهم المصير إلى الاعتقاد بعشاء الجنة عقب الانتحار. ومَن يدري لو عاصروا الشَّيخ عبد الله عزام الفلسطيني (قتل 1989) لجندوا إلى أفغانستان ثم صاروا ضمن الأفغان العرب فالقاعدة، وهنا تأتي أهمية بحثهم عن الفكر العقلي، الذي لا يبيح قتل الناس تحت شعار الجهاد.

كان الفارق المميز ما بين الفئتين أن هؤلاء نظروا في الدِّين مع العقل وأولئك طلبوا الدِّين بلا عقل. وكل ما نراه مِن تمادٍ في الجهل يحسب مِن الفئة الثَّانية، والحق أن المعتزلة سخروا من الشَّفاء بطرد الجن، وغيرها مِن مغيبات العقل، حتى قيل: «مِن بركة المعتزلة أن صبيانهم لا يخافون الجن» (التَّنوخي، نشوار المحاضرة). فتأمل العبارة، وتأمل دوافع الشَّباب المستجيرين بالمعتزلة.

انتهى اللقاء بهم، وقدموا لي شهادة تذكارية، وطلبوا أن أكون مستشارهم الثقافي، ولما عرضوا عليَّ العشاء معهم قالوا: نحن لا نمتلك نقوداً كي نقيم لك عشاء في مطعم داخل فندق مِن الفنادق،

إنما أتينا بالعشاء معنا. قلت: أكل معكم التُّراب، ودعوني أقبلكم فرداً فرداً، وبما أني ملتزماً بموعد مع أصدقاء بفندق صلاح الدين وسط الرِّياض، قالوا: لا بد مِن العشاء.

إلى جَدَّة عبر البرِّ

لم يبق من الرِّحلة سوى يومين، فإما الاكتفاء بالرِّياض، وإما التَّوجه غرباً حيث الحجاز، مكة والمدينة وجدة والطَّائف. وأخيراً قررت التَّوجه غرباً وتمديد المكوث بالمملكة، بينما كانت الرَّغبة تشدني أيضاً لزيارة مدائن صالح وحائل والأحساء. لا حاجة لذكر السبب في شدِّ الرِّحال إلى مكة والمدينة، فهو معروف، وليس هناك من أجدادنا وآباؤنا مَنْ لم يحج إليهما، مثلما تقدم الحديث، لكن ما الحاجة لزيارة الطَّائف وجدة!

لا يتعلق الأمر بمدينة جدة كونها من حواضر المملكة المتقدمة، والأكثر انفتاحاً لطبيعتها وتاريخها، إنما هذا ليس على بال أحد وهو ربط اسمها بحواء، وروايات حول وجود هذا القبر هناك، إضافة إلى وجود الصَّديق عبد الرحمن العوشن، الذي قرر إذا لم آته إلى جدة سيأتيني إلى الرِّياض. أما الطَّائف فلأنها بلد الحجاج بن يوسف الثقفي (ت 95 هـ)، الذي حكم العراق طوال عشرين عاماً، وأصبح رمزاً للقسوة. بالنسبة لي فإن هذا السبب بحد ذاته يكفي للترغيب في زيارة الطَائف.

حذرني أكثر من صديق ألا أسافر مِنْ الرَّياض إلى جدة عبر الطَّريق البري، فطول الطَّريق حوالى ألف كيلومتر، يستغرق من الوقت اثنتي عشرة ساعة. ولما أخبرت الصَّديق تركي السُّديري قال لي: أحذرك إنها مغامرة! فالطَّيران متوافر ولا داعي للمتاعب! قلت له: إذا انعدم التَّرحال عبر البر ستنقطع الكتابة عن الأمكنة، أو ما يُعرف بأدب الرِّحلات، والفريد ثيسجر (ت 2003) لم يعبر الربع الخالي إلا على ظهر جمل، ليكتب كتبه الرَّائعة عن رحلاته.

حجزت إلى جدة عبر شركة النَّقل العام، وكان مشاري الذايدي حتى لحظة الحجز يكرر عليَّ القول: إذا أردت السَّفر بالطَّائرة فالحجز متوافر في أي وقت شئت، لأنك ستتعب كثيراً، وإذا كنت مُصِّراً فتوكل. كان في مخيلتي أني سأرى مضارب مجنون ليلى، وعنترة، ومواقع الغزوات، وما تركت عوادي الزَّمن من آثار تلك الحِقب على أرض نجد!

دخلنا إلى مكتب الحجز فوجدناه فارغاً عند المساء، وعلى غفلة طلبوا خروجنا بسبب وقت الصَّلاة، وانتظرنا أكثر مما يلزم، فالرَّجل قاطع التَّذاكر ذهب إلى المسجد، ويبدو أنه يعمل بالمحل وليس صاحبه كي يحرص على العودة لفتح المحل، ولو حُسبت السَّاعات التي تذهب هدراً بحجة الصَّلاة، وهي ليست كذلك، لظهرت خسائر طائلة، وقد قدم الإعلامي والكاتب

السُّعودي داوود الشِّريان برنامجاً خاصاً عبر فضائية «العربية» يُعالح مثل هذه الحال.

انتظرنا حتى يأسنا مِنْ عودته، وما كنت أعلم أن المحلات تقفل عند وقت الصلاة كافة إلا تلك اللحظة. بعدها حصل لي أمرٌ داخل مكتبة العبيكان بجدة، حيث صعدت إلى طابق الكتب التُّراثية، وإذ خلال لحظة، من دون سابق إنذار، لاحظت المكتبة قد فرغت تماماً من الزَّبائن والموظفين، وانطفأت الأنوار، إلا الخافت منها.

خشيت أن أمراً ما حصل، وربما سأُعد مِنْ السُّراق، وبعد النُّزول إلى الطَّابق الأسفل لم أجد أحداً لأسأله، حتى ضربت على زجاج الباب، ففتح لي الحِارس، على ما أظن، وأخذ يلومني كيف بقيت داخل المكتبة وقد أُقفلت، فقلت: أعذرني لم اسمع النداء. بعدها أخذت أحسب حسابي لمثل تلك المواقف.

حجزت صباح اليوم الآخر، فقد أردت للرِّحلة أن تكون في ضوء النَّهار كي أرى معالم الطَّريق، سارت الحافلة كثيراً، ولا زالت داخل مدينة الرِّياض، تلك المدينة الشاسعة المترامية الأطراف، لكن بالتدريج أخذت مظاهر المدينة تغيب عن النظر، حيث بداية البداوة الصِرفة.

لا يوجد في الحافلة سوى ثلاثة وعشرين راكباً، لم ألمح بينهم سعوديين، كانوا أسرة يمنية وأخرى سودانية، والبقية الباقية

من الهنود والباكستانيين والأسيويين، وخلفي امرأة لم ينقطع لسانها طوال الرِّحلة، من التَّعوذ والتَّسبيح، وتكرار عبارة واحدة من عبارات النجوة والحفظ مِنْ الحسد.

بدأ صوت القرآن وتفسيره وإعرابه عبر برنامج متواصل، من آلة تسجيل الحافلة، إلا أن السَّائق المصري بعد قطع نصف الطَّريق، والابتعاد عن مراكز المدن، التي نمر بها، أخذ يفتح الأغاني وبصوت هادئ جداً، كنت منسجماً كثيراً مع ترتيل القرآن وسماع التَّفسير، فالمكان يوحي بالانسجام، أو هي الذَّاكرة وما اختزنت مِنْ اقتران بين الصَّحراء وبداية الإسلام، فعلى العكس وجدت نفسي غير منسجم مع الموسيقى والأغاني التي يبثها السَّائق بين الحين والآخر، ويعلو صوتها ويخفض.

تجاوزنا كثباناً رملية متفاوتة العلو، حمراً وسوداً، ووديانا عميقة، مع ظهور واحات من النَّخيل هنا وهناك، وأحياناً تظهر فسائل النَّخيل مغروسة باستقامة. بعد عبور محافظة القويعية تظهر مِنْ فوق الوادي شرايين طرق تائهة في عمق الصحراء، يتجه الطَّريق إلى الرُّويضة ثم الطَّائف ومكة وجدة، لكن الطَّريق الذي سلكناها يتجه من الطَّائف إلى جدة مباشرة مِنْ دون المرور بالمدينة ومكة.

لفت نظري اسم مدينة لبيدة، فقلت ربما لها صلة بالمخضرم والمعمر لبيد بن ربيعة (توفي أول خلافة معاوية بن أبي سفيان)

صاحب المعلقة الشَّهيرة، لِمَ لا والأرض أرضه والمضارب مضاربه، فهو مِنْ عالية نجد. بعدها مررنا بقرية تسمى عروى الشُّعراء، وسنام، وطحي، والجادرية، والزَّيدي، والحوميات، وحلبان، والبدائع، وأم سريحة، والقصورية، والشَّامية، ومليح، والحفيرة، وعبلاء، وبئر العوجاء، والخرمة، والنَّاصرية، والسُّليمانية، وحصن قحطان، والرَّاغية، ومرغان السَّرداح، والخنيفساء، والعقيلة، وأم الدُّوم.

كنت أسجل الأسماء من دون ترتيب في دفتري الخاص، الذي يصاحبني في حلي وترحالي، ومنذ سنوات عديدة، حتى جمعت مثله تسعة دفاتر، سماه الصَّديق عبد الله بن بجاد «دفتر الفوائد»، في ما يلاقيني من الحوادث وما أقرأه من الرِّوايات، وما يشدني من الأقوال والأشعار. كان مشاري الذَّايدي على اتصال دائم معي، بين ساعة وساعة، ويسأل عن المنطقة التي وصلت إليها لينطلق شارحاً عنها.

مرَّ الباص بمدينة الطَّائف، نزلت فيها، وكأنني أبحث عن الحجاج بن يوسف وقومه ثقيف، وقيل لي إن هناك مكاناً بهذا الاسم، لكن الليل حجز بيني وبينه فمنعني مِنْ الوصول إليه. كنت أظن أن أجد الطَّائف كما رسمتها ذاكرتي عبر كتب التَّاريخ، الثَّقفيون كما هم يزرعون ويقطفون العنب الطَّائفي، وهو أحد أفضل أنواع العنب، إلا أن اللوحات الضَّوئية التي زينت أسواقها

قطعتها عن ذلك التاريخ، لوحات المطاعم والمقاهي ومحلات الزِّينة، والأسماء الحديثة الغربية.

ومِنْ دهشتي سألت السَّائق، وهو من المصريين الطَّيبين، أنحن بالطَّائف؟ قال نعم، سنستريح ثم نغادر إلى جدة مِنْ جهة الوادي. كانت منطقة العرفاء آخر مرحلة قُبيل الطَّائف، ثم أول مرحلة بعد الطَّائف محافظة الجموم، بعدها عبور جسر طويل يدخلنا إلى وسط جدة. كان عبد الرَّحمن العوشن متواصل معي على الهاتف وبين لحظة وأخرى يسألني: هل عبرت الجسر؟

وصلت الساعة العاشرة ليلاً، وكان كراج جدة للنقل العام مكتظاً بالباصات والرُّكاب، إياباً وذهاباً، فوقفت انتظر صديقي عبد الرَّحمن لنقلي إلى محل إقامتي بجدة، أخذ سائقو التاكسيات يدورون حولي، حتى وقف أمامي شابان مرحان، على ما يبدو، قال أحدهما للآخر: هذا يشبه الذي شاهدناه في برنامج إضاءات مع تركي الدِّخيل، ويا سبحان الله على هذا الشَّبه؟ وكأني وددت أعرفهم بنفسي، لعلهما يعرفاني فأترك حقائبي عندهما حتى أذهب إلى حمام المحطة بلا خوف عليها. قلت لهما: أنا هو ذاك الذي كان مع تركي الدخيل؟ ضحك أحدهما ضحكة عالية، استغربت من ضحكه، إلا أن الآخر أراد تبديد استغرابي، فقال: تركي الدِّخيل يستضيف باحثين وكتاب، وأنت تقول: أنا؟

إلا أنه أخذ يجاريني، أو يعطيني على قدر عقلي مثلما يُقال. قال: «طيب طيب أنت أنت! بس نسألك وين تريد تروح» ؟! قلت أنا قادم إلى جدة، واليوم الآخر سأذهب إلى المدينة المنورة، وأنتظر صديقاً هنا سيأتي لكنه تأخر قليلاً عليَّ. قال أحدهما: ما رأيك أن نأخذك إلى المدينة وتصلي الليلة، وهي ليلة جمعة، بالمسجد النَّبوي، وثوابها معروف، وتزور النَّبي عليه الصلاة، ثم نعود بك إلى جدة، والأجرة ليست عالية!

قلت لهما، جاء في القرآن: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾! اصلي حيث أنا. ضحكا مرة أخرى مني، وسمعت أحدهما يقول للآخر وهما يتركانني: «هذا لا جاي للصَّلاة ولا جاي لزيارة النَّبي». انسحبا فجأة وتواريا في زحمة الكراج مِنْ دون القول: مع السَّلامة. لكن عند النَّظر في المرآة، بعد قطع طريق ألف كيلومتر في عرض الصَّحراء، والنزول في محطات مملوءة بالغبار، حيث كانت آنذاك عواصف ترابية شديدة، فهمت ما أضحكهما مني، فقد كنت بالنِّسبة لهم لا كاتباً ولا باحثاً ولا تاجراً!

ما بين جَدَّة والبَصْرة

جَدَّة مدينة جميلة، يحتضنها البحر الأحمر بنصف دائرة تقريباً، ولعلها الميناء الذي أبحر منه الصَّحابة الأوائل إلى شاطئ الحبشة المقابل، حيث ملكها النَّجاشي، وضيافته لهم، حسب تصوري لم أقرأه في تاريخ مِنْ التَّواريخ، فربما كان الابحار مِن ينبع، فهي ميناء أيضاً، أو مكان آخر. ليس أجمل من الفجر والغروب بجَدَّة، وعلى وجه الخصوص في شهر آذار، حيث التوازن التام في المناخ ما بين انسحاب الشتاء وتقدم الصيف بقوة تشعر به تماماً عند (الظهاري) مِنْ الأوقات.

قبل ذلك، قرأت في «الرِّحلة الهندية إلى الجزيرة العربية» لمولانا رفيع الدِّين المرادآبادي (ت 1223 هـ)، وعدت إليه وأنا أهم بتسجيل هذه الخواطر، أن معنى جُدَّة (ضم الميم وتشديد الدَّال): «السَّاحل». لكن صاحب «الصحاح» يذكر الجُدَّة: «الخطة في ظهر الحمار تُخالف لونه»، والطَّريقة. جاء في الآية (فاطر: 27): ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ

سُودٌ﴾. ولجُدَّة عدة معاني في «القاموس المحيط»: جانب كلَّ شيء، السِّمن، وثمر كالطَّلح، والبئر في موضع كثير الكِلأ، والبئر المغرزة، والقليلة الماء، والاجتهاد في الأمر، وضد الهزل... إلخ.

لكن اسمها الحالي جَدَّة (بفتح الحاء)، وفي ذلك قال صاحب الرِّحلة الهندية: «في خارج مدينة جُدَّة(وردت هكذا في معجم البلدان لياقوت الحموي)، ناحية الشِّمال يوجد قبر أم البشر حواء(رض) لذا سماها العوام جَدَّة بفتح الجيم، بمعنى وادي. أما مزار السَّيد العلوي، رحمه الله، فيقع في داخل المدينة، وكان كلٌّ مَنْ عليه دَين لا يستطيع أداءه يأتي إلى هذا المزار، فيجلس بجواره، فلا يطالبه الحاكم بسداد الدَّين، ولا يطارده صاحب الدَّين طالباً حقه».

كانت الرِّواية الأخيرة عن اسم جَدَّة ماثلة في ذاكرتي، لذا أول ما وصلت سألت عبد الرحمن، ونحن نتجه إلى فندق البلاد على السَّاحل: أين ضريح حواء! قال موجود، إلا أنه محاط بحاجز! ثم أردف قائلاً: هنا يوجد مُتحف، وعناية بالآثار، عليك زيارته. أول ما لفت انتباهي من جَدَّة القديمة، حيث يقع المُتحف، هو تماثلها مع البصرة، لكثرة الشَّناشيل الخشبية، المطلة من الشَّبابيك والبلكونات، حتى خُلت نفسي أنني بالعشار، وهو مركز مدينة البصرة الحالية، وكذلك أسواقها القديمة لها نكهة أسواق البصرة، ولعلَّ الأمر يتعلق كونهما مِنْ صناعة سواحل البحار،

والماء المفتوح بينهما عبر الخليج العربي، بعد تجاوز باب المندب وساحل عدن.

زرت المُتحف، الذي يسمى ببيت ناصيف. وآل ناصيف أسرة ثرية منحت هذا البيت ليكون مُتحفاً لآثار جَدَّة القديمة. كان الوقت غروباً، لكن انتظرنا مدير الآثار بجَدَّة المهندس سامي نوار، وكان إنساناً شغوفاً بالمعرفة قوي الذَّاكرة، يتحدث عن آثار محلة البلد وكأنه يقرأ في كتاب، وهو على ما يبدو مِنْ سكانها الأوائل، بدلالة منزل عائلته التُّراثي فيها. انطلق النَّوار متحدثاً عن بيت ناصيف، قائلاً: يعود إلى أسرة عمر أفندي ناصيف، ونزل به الملك المؤسس عبد العزيز بن سعود العام (1925) عند زيارته للمنطقة، قبل أن يُعلن اسم المملكة العربية السعودية بسبعة أعوام.

خلال حديثنا، ونحن وقوف عند بوابة المُتحف مرَّ رجل بدت النَّعمة عليه ظاهرة، بائنة على محياه، وهندامه وتأنيه في الكلام يدل على ذلك، متواضعاً في مشيته، سلم علينا ووقف قليلاً، فقال المهندس سامي: هذا هو صاحب البيت، من أُسرة ناصيف.

يتوسط البيت محلة البلد من محافظة جَدَّة، شيد بطراز تراثي فريد، وزخرفت أخشابه أيد ماهرة، وهو شاهق العلو، على الرَّغم من أنه أربعة أدوار، لكن السُّقوف مرتفعة عن الأرضية، ثم ينتهي بشبه مضيفة مفتوحة الجوانب، تلعب فيها الرِّياح مِنْ كلِّ

الجهات، وتبان منها المدينة كاملةً. وكم يسحرك المشهد وشفق الغروب يتقدم، خصوصاً للقادم مِنْ بلاد لا يُرى فيها الغروب، حيث يتصل عصر لندن بليلها مِنْ دون لحظة غروب، بينما هنا يتأنى الليل بقدومه.

يبدو المهندس سامي مأخوذاً بالأثر، وهو متفرغ له تماماً، فسمعته وأنا أسايره في الطَّرقات القديمة، يمنع هذا البائع ويؤنب ذاك لإخلاله بعرض البضاعة والتَّجاوز على الطُّرقات بمحلة البلد، وهي قلب جَدَّة القديم. لم يكف سامي عن الحديث عن المُتحف، وكيفية جمع ما فيه، وترتيبه، ومشقة الاهتمام بجِّدَّة القديمة والقلق عليها.

صعدنا إلى الأعلى ساعة الغروب، كي نسمع مِنْ هناك صوت الأذان، وهو يمتزج في تلك الأجواء السَّاحرة، إلا أن ما لاحظته هو التَّأخير والتَّقديم بين صوت مآذن المساجد الكثيرة، ومع ما تجلبه من شاعرية اللَّحن وقطع رتابة الصَّوت الواحد، لكن وقت الصلاة لابد أن يكون بدقائق وثوان موحدة، وهذا ما دفع إمارة أبو ظبي إلى توحيد أذان مساجدها في وقت واحد، وعلى ما أظن أن مصر حاولت ذلك.

لكن ما سمعته من مؤذن قصر الحكم بالرِّياض، أو المسجد حيث دار الإمارة، لم اسمعه لا مِنْ قبل ولا مِنْ بعد، حيث انتظرنا أنا

ومشاري الذَّايدي بقصد سماعه، ناطرين بالمقهى مقابل المأذنة، وقيل لي إنه يؤذن منذ مدة طويلة، وارثاً عن أبيه الصَّوت والأداء ومكان الأذان أيضاً.

كان عند الطابق الأول، ونحن نهم بالصُّعود، إلى تلك السَّقيفة مِنْ بيت ناصيف، شاب ألماني يتكلم العربية بصعوبة، فطلب الصُّعود معنا، ليسمع صوت الأذان أيضاً مِنْ على تلك السقيفة الخشبية، فكان له ذلك. سألته ماذا يفعل هنا، قال نحن مجموعة أتينا للإطلاع والدِّراسة، وهو طالب دراسات عليا بجامعة برلين!

عندها قلت له، من باب التَّذكر، لي زميلة ألمانية، مستشرقة حسب التصنيف القديم للمهتمين بأمور الشرق ويجيدون العربية، تركت لندن إلى برلين، وهي أستاذة في التَّاريخ، وعلى ما أظن أنها رئيسة قسم هناك اسمها يولريكة فريتياخ. قال: هي أستاذتي، المشرفة على إطروحتي، وهي معنا رئيسة المجموعة هنا بجدة. سألته: هل أنت متأكد أنها يولريكه، فذكر لي أوصافها، واسم زوجها، وإنها كانت بجامعة لندن تُدرس التَّاريخ، قلت: هي بعينها.

قال المهندس سامي نوار، سنراها بعد ساعة، ببيت أحد الزُّملاء، وهو أستاذ جامعي. ذهبنا إلى هناك، وكان استقبال فائض الكرم من صاحب الدَّار ونجله، لكن الدُّكتورة يولريكة ما

وصلت بعد، وكنت مرتطباً بموعد آخر، فأصر عليَّ الحضور أن انتظر، بعد أن سمعوا مني بزمالتنا الطَّويلة، وأني لم أرها لمدة طويلة أيضاً، حيث آخر مرة زرتهم ببيتهم ببرلين العام 2004، بعد تركهما لندن.

خلال الانتظار توافد الضيوف، مِنْ أساتذة جامعة وكُتاب وأطباء وغيرهم، وإذا بصاحب الدار يقدم لنا أحد الدَّاخلين بالقول: طبيب جراح فلان ابن فلان، من الوافدين العرب العاملين بالسُّعودية، وهو فائز بجائزة شاعر العرب، من إحدى الفضائيات، وإذا بالطَّبيب الشَّاعر يندفع كالطَّفل متحدثاً عن فوزه، وعن الجائزة التي منحت له، وصاحب الدَّار يضخم، ويفخم بشاعريته، مع ظني أنها كانت مجاملةً.

بعد الحديث عن قصيدته، وكيف أطاحت بفحول الشُّعراء وقصائدهم العصماء، أخرج ورقة واندفع يقرأ قصيدته. في البيت الثَّالث أو الرَّابع، سئمتُ من القصيدة وطريقة الرَّجل باقتحام المجالس وفرض نفسه على الحاضرين. وأي لقب هذا «شاعر العرب»، الذي تمنحه قناة تلفزيونية لا شأن لها! فخيرت نفسي بين أمرين: إما الوقوف وإسكات هذا الرَّجل، الذي لو ظل يعتني بطبه لكان أفضل له بكثير، وإما أن أخرج حالاً. مع علمي أن في الأمر الأول إساءة لربِّ البيت المضياف والكريم مع الجميع.

تشاورت مع المهندس سامي وأعلمته بأني سئمت من تلك القصيدة ومن طريقة إلقائها، وفرضها على الأسماع بهذا الثِّقل، على الرَّغم أنه قرأها لمرات من على شاشة تلك القناة مثلما قال، وبدا لي أنه لم يدخل مجلساً إلا وقرأها، فأنا لا أتابع تلك القناة ولا أحفل بالألقاب التي تطلقها. اتفقنا أن أغادر فقمتُ، وطبيب الأذن والأنف والحنجرة منهمك في إلقاء قصيدته، التي لا أتذكر منها مفردة واحدة، وإذا بصاحب الدَّار يقوم ويمنعني، ليس لغرض سماع القصيدة، بل لتناول العشاء معهم، وسكت الشَّاعر برهة وظل شاخص العين نحوي، بانتظار تقديم اعتذار أو إطراء لما سمعت، لكن لو كان ابن المرزبان (ت 309 هـ) حياً ما خلا كتابه «ذم الثُّقلاء» من ذكر لهذا الطَّبيب الشَّاعر وانشغلت بإقناع صاحب الدار بالسماح لي بالمغادرة، وهو يمسك بيدي لأدبه الجم ونفسه الكريمة.

خرجنا مع كلمات التَّوديع والتَّرغيب في البقاء، وإذا بالدكتورة يولريكة عند بوابة الدَّار الفخمة، وتحت خفوت الضِّياء، اقترح المهندس سامي ألا أقدم نفسي لها، وجعلها تتكشف وجودي بنفسها فجأة، فليس هناك أي احتمال أن تراني بجَدَّة. صافحت البعض وتركت البعض الآخر، لأنهم لا يصافحون النِّساء، ووصلت لي، وما أن نظرت بوجهي إلا واحتضنتني وقبلتني، ثم التفتت إلى صاحب الدار، وكان مِنْ المتدينين مع خفة ظل، معتذرة، ومعرفة

بعلاقتي بها وبزوجها أنها صداقة أُسرية قديمة وزمالة طويلة، لكني هذه اللحظة، لابد من الإلتحاق بموعد آخر ينتظرني مع صديق، وعدم رغبتي في العودة لإكمال سماع تلك القصيدة، على أن نلتقي بدار سامي نوار الأثرية، القريبة من بيت ناصيف، في ظهيرة اليوم التَّالي.

قبري حواء والعَلوي

أزقة جَدَّة القديمة، حيث محلة البلد، توقظ فيك التَّاريخ والفن المعماري الرَّزين، ذلك عندما تقابل تلك البيوت وشناشيلها الخشبية مع العمارات الأسمنتية والحديدية الحديثة، التي تأن تحت وطأها شوارع جَدَّة الحديثة، والمحيطة بمحلة البلد. تعلو على تلك المحلة محاصرة للعَراقة المعمارية والفنية.

كان سامي نوَّار، بقدر ما هو مشغول بالأثر وتدوينه وحفظه ومتابعة شؤون تلك المحلة العريقة، مشغولاً بعمران دار أسرته التُّراثية، فهي تحت إعادة التَّعمير. دخلنا إلى مكان خرب، وهو يشير لنا هنا الحمام القديم، وهنا الشُّرفة، وتلك غرفة الضُّيوف، يريد إعادتها على ما كانت عليه. بعد الخروج من الدَّار وقفنا تحت ظل شجرة وارفة، قالوا: إنها أثرية أيضاً، فهي واقفة منذ 1947 هنا، عند بوابة بيت ناصيف.

كانت الدكتورة المستشرقة الألمانية وفريقها موجودين، وأثناء ذلك همست بإذني قائلة: هناك ضريح لشخص يُقال له

العلوي، أريد مشاهدته، فقلت: وأنا معكم، وهو نفسه الذَّي أرخ له صاحب الرِّحلة الهندية. تقدمنا الدكتور المعمار عدنان عدس في أزقة جَدَّة القديمة الملتوية والمتداخلة بعضها ببعض، وصعدنا تلة، وأشرفنا على بستان صغير وقديم، تحوطه أسوار من الشِّبك الحديدية.

نادى الدكتور عدنان على البيت المجاور، وظهر لنا رجل، يبدو أنه باكستاني الأصل، محنى الشعر، مكحل العينين، ضخم الجثة، يرتدي دشداشة لونها داكن بلون القهوة ومقلمة، على غير ما ألفناه في الشَّارع السُّعودي، لا اللون ولا الفصال، وبيده مفتاح باب الشِّبك، وأشار مِنْ بعيد بيده إلى قبر العلوي، وهو دارس مع الأرض، ما عدا تلة محدبة تعلوه، ومسور بأحجار.

تذكرت حينها ما قرأتُ في الرِّحلة الهندية، حول هذا القبر، وأن (الجَدَّيين) يلجأون إليه للاحتماء من الدائنين، كما أسلفنا. كان ذلك في القرن الثالث عشر الهجري، لكن الأحوال تبدلت ومع تشكيل المملكة العربية السعودية، وإعلان الحجاز ضمنها، في العشرينيات، مِنْ القرن الماضي، أُلغيت القبور والأضرحة لكائن مَنْ كان، وقيل لي تم ذلك العام 1926. وعدت زميلتنا يولريكة بتزويدها بصورة من رواية صاحب الرِّحلة، وما جاء فيها عن قبري العلوي وحواء أم البشر، لكنني إلى هذه اللحظة لم أفِ بوعودي لها.

كثر الحديث عن موقف المملكة السعودية من القبور والأضرحة، ولأحمد بن حنبل (ت 241 هـ) روايات في ذلك، وأن خير القبور الدَّوارس، وكذلك عند ابن تيمية (ت 728 هـ)، حتى أن رفع قبر ابن حنبل من وسط بغداد، بسبب الفيضانات المتكررة، اعتبره ابن بطوطة، عندما زار بغداد 728 هـ، ولم يجد قبةً تعلوه، كرامة مِنْ كراماته.

قال: بالقرب مِنْ قبر الإمام أبي حنيفة (ت 150 هـ) «قبر الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل، رضي الله عنه، ولا قبة عليه، ويُذكر أنها بنيت على قبره مراراً فتهدمت بقدرة الله تعالى، وقبره عند أهل بغداد معظم» (الرِّحلة). لكن حتى القبر أُزيل مِنْ الوجود، على الرَّغم أن المغول تركوه سالماً، بدليل رؤية ابن بطوطة له بلا قبة، وقد وصل بغداد بعدهم بعقود، حيث آخر السَّلاطين الجلائريين.

على قاعدة الشَّيء بالشَّيء يُذكر، فابن بطوطة على الرَّغم مِنْ مكوثه بجَدَّة أربعين يوماً ينتظر الإبحار إلى اليمن، ومن ثم العودة إليها من مصر، فهو لم يصفها بشيء، ولم يخبر عنها خبراً، سوى أنها مكان للانتظار، مع ما فيها من تفاصيل تفوق العديد من القرى والمدن والأمكنة، التي تحدث عنها بإسهاب.

ما لاحظته في شأن القبور والأضرحة بالمملكة العربية السعودية أنها عقيدة دينية. يرى أتباع الشَّيخ محمد بن عبد

الوهاب أنها صحيحة، وبغض النَّظر عن عقيدتهم أصحيحة كانت أم خاطئة، إلا أن ما سمعناه مِنْ أنها موجهة ضد الأئمة أو العلويين غير صحيح، إنما هم يعتبرون الجسد ما بعد الموت لا قيمة له، مهما كان مقام صاحبه، حتى سمعت أن بعض المشايخ لم يعجبه وجود القبب فوق قبر النَّبي وأبي بكر وعمر، ولولا أن رفاة الأخيرين دُفن إلى جانب النَّبي، لما رأيت لهما قبرين يُسلم عليهما عند الخروج مِنْ المسجد، ومثلما تقدم أن أول القبور المجرفة هو قبر الصَّحابي زيد بن الخطاب، المدفون بالعينية، والمقتول في حرب اليمامة (11 هـ).

ينطبق هذا أيضاً على قبور ملوك آل سعود أنفسهم، فليس لها أثر في مقبرة العود بالرِّياض حيث يدفنون، مِنْ الأوائل مثل الإمام تركي بن عبد الله، أُطلق اسمه على أهم مسجد بالرِّياض، وهو المعروف بالمسجد الكبير، قريباً من قلعة المصمك التَّاريخية، حيث يُصلى فيه عادة على جنائز الملوك والمشايخ بل وعامة النَّاس، والإمام عبد الرحمن والد الملك عبد العزيز، إلى المؤسس عبد العزيز نفسه، والمعاصرين أولاده الملوك: سعود، وفيصل، وخالد، وفهد.

بدارة المعمار عنقاوي

لاحظت أن هناك رغبة ملموسة في إحياء تراث جَدَّة القديمة، وأن جهوداً حثيثة تبذل من قِبل هيأة السِّياحة، لأهمية جدة وحضورها عالمياً، واعتراف اليونيسكو بمواقعها الأثرية، كحي الطَّريف بمحافظة الدِّرعية التابعة لإمارة الرِّياض مثلاً، ويترأس تلك الهيأة الأمير سلطان بن سلمان بن عبد العزيز، بمعنى أن للآثار أهمية أفضل كثيراً من ذي قبل، حيث الموقف الدِّيني منها، باعتبارها أصناماً، وتحت هذا المبرر اختفى العديد من الآثار الضاربة جذورها في عمق التاريخ.

تأخر كثيراً الاهتمام بالأثر في أرض مكتنزة به، فقد تشكلت أول دائرة للآثار بالمملكة العربية السعودية 1963. ثم جاء المسح الأثري، وصدرت قوانين تنظم مهمات تلك الدائرة، التي كان شأنها شأن مديرية الآثار بالعراق تتبع في أول أمرها لوزارة المعارف. حالياً ألحقت بهيأة السياحة، وصار مِنْ المناطق الأثرية تحت اهتمام ورعاية اليونسكو، واتجه الاهتمام بالأثر كثروة وطنية، لكن

بحذر مِنْ عقدة الصنمية. لذا لم تعرض تلك الآثار إلا في المتاحف الدُّولية وبحذر، فلا يجوز التصوير في ذلك الجناح.

تكلل ذلك الاهتمام بافتتاح (يوليو (تموز) 2010) معرض تحت عنوان «روائع آثار المملكة العربية السعودية» بمُتحف اللوفر بباريس، بالتنسيق مع الهيأة العامة للسياحة والآثار بالمملكة، دعاني إلى حضوره الصديق الكاتب عادل الطريفي.

بعد مشاهدة المعرض وما فيه مِنْ آثار حضارية عريقة، خاصة بالجزيرة العربية وما حولها، لابد مِنْ مراجعة قراءة التَّاريخ، فما ظهر لنا أن هذه الأرض خاوية لم تنشأ عليها حضارة حجرية أو طينية، قبل الإسلام، إنما هي خيام مِنْ الوبر، وليس فيها سوى حضارة الكلام المحفوظ في الصدور، وما وجد مِنْ خطوط على القبور قديماً مِنْ خط المسند هي نوادر مما تبقى. وتلك الثقافة الشعرية يختصرها الجاحظ (ت 255 هـ) بالقول: «إلا إذا استظهرنا الشعر العربي، وجدنا له إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومائة عام ...» (كتاب الحيوان).

حوى المعرض تماثيلَ شخوص صخريةً عملاقة، يرقى زمنها إلى آلاف السنين، وأن لها صلة مع الحضارة العراقية، والبحر الأبيض المتوسط عموماً، وهناك مِنْ الأثر الإغريقي، مِنْ مسكوكات ورسائل. لكن المثير في المعرض هو شواهد القبور، كيف حفظت تلك الشَّواهد بعد إزالة القبور 1926 وما بعدها.

لا أدري ما هي دقة ما نقش عليها مِنْ الأسماء فواحدة منها لرقية بنت علي، والمصدر هو مقبرة المعلاة بمكة، وهو منقوش بكتابة غير معجمة، ومعنى ذلك أنه يرقى إلى القرن الهجري الأول. أما الشَّواهد الأُخر فترقى إلى العصر العباسي المتأخر (500 - 600 هـ)، لفقهاء وعلماء ووجهاء. منهم: علي بن عبد الرضا ابن الأشج (1085 ميلادية)، وجمال الدِّين بن محمد (1196 ميلادية)، وأبو بكر الطبري (1217 ميلادية).

لكن الأهم مِنْ هذا هو حضارة ما قبل التَّاريخ، وما كُشف تحت رمال مدائن صالح، وقرية الفاو، ونجران، وتيماء، والقطيف وغيرها. إن أثراً مثل الأخدود بنجران، وما جاء في الآية: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ (البروج: 4 - 6)، قصة مشهورة، ما حصل فيها لمسيحيي نجران، لم يكن بعيداً عن تاريخ الإسلام، وهو الحدث المثير.

تعطي الآثار المعروضة فكرة عن الاتصال الحضاري بالمنطقة، وأن الحضارات والثقافات إنسانية قبل أن تكون عربية أو إغريقية، فعندما نقف على خرائب بابل أو الاهرامات بمصر تبدو الحضارتان أنهما محصورتان بجغرافيتهما، فلا نتوقع أن الحضارة السومرية وصلت إلى البحرين والقطيف شرقي المملكة السُّعودية، حيث آثار دلمون هناك، وقبورها المقببة.

ولا الحضارة المصرية وصلت إلى العراق والجزيرة، عن طريق التجارة أو الدِّبلوماسية، وإلا ماذا يعني العثور على أثر مصري تحت تراب مدينة دهوك بشمال العراق، حيث إقليم كردستان، مثلاً! كذلك كيف يُعثر على القلائد والأواني الرافدينية بمنقطة قرية الفاو السعودية أو تيماء. وماذا تفعل رسالة الإمبراطور الروماني أو اليوناني تحت تراب الجزيرة العربية، وهي رسالة شكر إلى هذا الإمبراطور قدمها أهالي تلك القرية، يشكرونه فيها على عمران منطقتهم، وباللغة اليونانية.

كان هناك حاجب على هذه الآثار، وبدت المؤسسة الرَّسمية، التي تعنى بها، حذرة مِنْ التعامل مع الأثر، وذلك بسبب الرَّفض الدِّيني، والعقيدة التي صنفت أحجار الماضي أنها بقايا الأصنام. أتذكر جيداً عندما أقمنا بوسط لندن أسبوعاً لمصورات الحضارة السومرية، وقف أحد العراقيين، مِن الدارسين لعلم الأحياء، بهاجسه الدِّيني مشيراً إلى تلك المصورات بالصنمية.

فلا عجب مِنْ محاولات عرقلة الاهتمام بالأثر بمنطقة الجزيرة العربية تحت ضغط العقيدة الدِّينية. لهذا عندما سمعت مِنْ عادل الطَّريفي بخبر معرض الكنوز أو الرَّوائع السُّعودي حرصت على زيارته، فهو ليس مِنْ السهولة أن يُقام هناك، فالتماثيل التي لا ينظر إليها إلا مِنْ جانب الفن الدَّقيق المبذول فيها، قطع أثرية نادرة جداً، وربما لا تثمن بثمن.

إن وجود الحاجز الدِّيني، والجهل بأهمية الأثر وكيفية العناية به، فسح المجال لنقل آثار بابل وسومر وآشور إلى المُتاحف الأوروبية، حيث كانت حركة الأكلاك (السفن) مستمرة عبر البحر، وبفرمانات عثمانية، لكن بعد ما حصل للأثر العراقي حمدنا الله أنها بالحفظ والصَّون بمتحف اللوفر بباريس، حيث تحفظ مسلة حامورابي الأصلية، والمتحف البريطاني، الثيران المجنح والقيثارة السومرية، ومُتحف بيركامون ببرلين، حيث تحفظ بوابة عشتار بألوانها الطبيعية، وضريح نبوخذنصر.

فعلى الرَّغم مِنْ عظمة الآثار العراقية لم يستدل العراقيون إلى حفظ أثر مِنْ آثارهم إلا بجهود البريطانية المس بيل (ت 1926)؛ وفي غرفة صغيرة افتتحت لهذا الغرض، بينما نحن لمئات السِّنين نخلع مِنْ أحجار بابل وطاق كسرى لتشييد بيوتنا، مِنْ دون علم أنها الثروة الأنفس.

وكاد طاق كسرى يُهدم لولا رأي حصيف مِنْ الوزير البرمكي أشار به على الخليفة العباسي (الرَّشيد وقيل المنصور) عندما قرر الأخير هدمه (الجهشياري، الوزراء والكتاب). مع أن بابل وسحرها، وهو غير ﴿هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ (البقرة: 102)، كان معروفاً ومتداولاً في الحضارة العباسية، سوى كان في الشِّعر أو حكايات العجائب (المسعودي، مروج الذَّهب).

ربما أثارت تلك الآثار المعروضة بمُتحف اللوفر الأجانب قبل السعوديين، وقبل العرب أنفسهم، حيث تقرفص فرنسيون وأمريكان وبريطانيون أمام التماثيل العظيمة الحجم، وتلك المنقوش عليها بالكتابة الآرامية والحميرية والعربية قبل التنقيط وبالفينيقية أيضاً، آثار اكتشافات في قرية الفاو، القريبة مِن نجران، وبتيماء مِنْ نجد، ومناطق أُخر لا أتذكرها. منها الحلي الذهبية، وقامات أشخاص تشبه كثيراً ما كُشف عنه بوادي الرافدين جنوباً وشمالاً.

لذا بعد لمس الاهتمام بتراث المدن الحجازية ورغبة أبنائها في ذلك، وتزامناً مع الاهتمام بالآثار بشكل عام، فإن المملكة العربية السعودية قادمة على تكريس الثَّقافة الأثرية إن صحت العبارة، متجاوزة بذلك عقوداً مِنْ الممارسة السِّلبية ضدها تحت مبررات دينية، فأسماء الأصنام التي وردت في الآية: ﴿وَدّ وَسُوَاعٌ ويَغُوث وَيَعُوق وَنَسْر واللاَّتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ﴾، ويضاف إليها هُبل، لا تبث فيها الرُّوح من جديد، قد مضى عصرها، حال كسرها وإخراجها مِنْ جوف الكعبة، ولا ينظر إن ظهر مِنْ آثارها، أو ما شابهها إلا لأيدي الفنانين الذَّين نحتوها. وما ينفع المؤرخ والباحث مِنْ علم بزمانها. قال كعب بن مالك الأنصاري(ابن هشام، السِّيرة النَّبوية):

ونـنـسـى اللَّاتَ، وَالْعُـزَّى وودا
ونسلبُـها القلائـدَ والشُّنـوفا

مثلما كان النِّقاش جارياً بنجد، داخل الرِّياض، حول الحوار والمبادرات الثَّقافية والتَّجديد الدِّيني والاجتماعي، وما يخص أحوال المرأة، كان الحوار بالقوة نفسها داخل الحجاز، لكن حول الحفاظ على الأثر الحجازي في حواضره الرَّئيسية: مكة والمدينة وجدة والطَّائف.

تجد هذه الظَّاهرة واضحة، فعلى ما يبدو ليس هناك بنجد مِنْ طراز عِمارة أو أثر سوى القلاع، التي حوفظ عليها، من أجل شهادتها على التَّاريخ السِّياسي القريب. أما الحجاز فقد نشأت فيه مدن عريقة ذات خصوصية أثرية، وما حصل مِنْ توسع عمراني داخل تلك الحواضر لا يتناسب مع شخصيتها الحضارية، لذا تجد النِّقاش جارياً، مع وجود تفهم من الدَّولة لهذه الحال.

تبدو لك تلك الأرض الشَّاسعة خالية مِنْ أي أثر في باطنها، فالموقف مِنْ الآثار منذ كان سلبياً للغاية، وليس هناك عناية سابقة أيضاً، ومرتبطاً بالعقيدة الدِّينية للمذهب السَّلفي، على أن كلَّ ما سبق الإسلام مجرد أصنام، مورس ضدها ما مورس ضد القبور، وبالفعل أن الغالب من آثار الأولين كان على هيئة تماثيل وصلتنا من الحقبة السومرية والبابلية والآشورية أو المصرية.

مِنْ المعلوم أن تلك التَّماثيل مربوطة بفكرة تلك الأصنام التي كانت تُعبد أو بها يتقرب الطالبون من الله، فالآية التالية تقر

بأنها كانت بمثابة وسائط وليست الآلهة: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (الزُّمر: 3).

لكن يصعب تصديق أن الجزيرة الشَّاسعة كانت خالية مِنْ تلك الآثار، وهي تملأ أرحام أراضي البلدان الملاصقة، مثل اليمن والعراق والشَّام، أيُعقل أنها ظلت بكراً لم تطأها قدم إنسان! وهل يُعقل أن تلك الحضارات لم تمتد إليها! صحيح أن عمرو بن بحر الجاحظ (ت 255هـ) أشار إلى وجود تاريخ عربي يُقدر بـ 150 عاماً قبل الإسلام، حسب ما جاء في كتابه «الحيوان»، لكن الأمر لا يبدو هكذا بعد زيارة المعرض السعودي للآثار بمتحف اللوفر بباريس مثلما سبقت الإشارة إليه.

يتحدث معماريو جدة والحجاز بشكل عام عن تراث حجازي، وجَدَّة أحد مفاصله المهمة، فمَنْ يزور دارة المعمار سامي عنقاوي ويقلب ناظريه فيها سيجد أن هذا الرَّجل مسكوناً بالتَّراث. لم يفارقني ذلك المشهد، الذَّي كنت أحسبه مجرد صور معمولة ببرنامج (الباور بوينت) معروضة على شاشة الكمبيوتر، وهو خلية نحل تفرز العسل ويتحرك النَّحل حول الخلايا، وسألت عن هذا المشهد، وهل له صلة بمجلس اليوم الثقافي!

بدد المعمار عدنان عدس استغرابي مِن المشهد، عندما أخذني من يدي وأشار إلى كوة عند شباك صغير، أو «رازونة»، حسب لغتنا العراقية، لأرى النَّحل حقيقة يتحرك من دون توقف، وأن هناك كاميرا سلطت عليه لتسهل رؤيته بوضوح عبر الشَّاشة الصَّغيرة، ليتسنى لك منها مراقبة ما يدور في خلية النَّحل. الظَّاهر أن النَّحل الموجود في تلك الكوة كان برياً، وليس داجناً. وأظن أن كثرة النَّباتات الموزعة داخل الدَّارة، وعلى علو طوابقها وحولها فعلت فعلها لاستدراج النَّحل.

تقع دارة المعمار سامي عنقاوي بحي الشاطئ وسط جَدَّة الحديثة، وهي ذات طوابق عديدة، لكنها مفتوحة مِنْ الدَّاخل إلى الأعلى، وفوق كل طابق غرف مختلفة الأغراض والأحجام، وبينها صالة للاستراحة، وفي داخلها مُتحف، وفي ذلك اليوم كان معرض للحلي، أشرفت عليه زوجة المعمار عنقاوي.

يتوسط الدارة مسبح واسع يبدو من الأعلى كأنه بحيرة في وادٍ ينظر إليها مِنْ على قمة جبل. زخارف خشبية تغلف الحيطان، والأَسرة والأثاث بحيث تبدو جزءاً من البناء. وبعد الجولة بين طوابق الدَّارة الفخمة، التي سمعنا خلالها شرحاً مفصلاً من صاحبها، دعينا إلى مجلس ثقافي، يُعقد على ما أظن كل مساء ثلاثاء، يحضره كتاب ومعماريون وأدباء وشعراء،

وندواته متنوعة، لكن مركز الثِّقل فيها هو للعمارة، ولشؤون المحافظة على التُّراث الحجازي.

يتحدث المعمار عنقاوي بلهجة لم آلفها مِنْ قبل، فيها لكنة محببة ومفرداتها تخرج مِنْ على اللسان مركزة وعميقة، وفيها شيء من الغنج اللفظي بلا تبذل، كنت سمعتها مِنْ قبل على لسان الإعلامي والكاتب جمال خاشقجي، تُنبئك أنك تسمع شيئاً آخر، ولما سألتُ قالوا: إنها اللهجة الحجازية. كذلك كانت ثياب عنقاوي مختلفة عن الثياب السَّائدة، ثوبه يشبه الجُبة ومطرز، وهو على ما يبدو مِن طراز ثياب الحجاز التقليدية.

كان المجلس على غير العادة يجمع الرِّجال والنِّساء مِنْ دون حواجز، لكن مع تقدير الحال فالرِّجال يجلسون في المقدمة وبعدهم يأتي النِّساء. عند النِّقاش سمعت آراء جادة منهنَّ، وعرفت مِنْ تقديمهنَّ أنهنَّ كاتبات ومثقفات، وحرصَ مقدم النَّدوة المعمار الدكتور عدنان عدس على مشاركتهنَّ.

حضرت مِنْ دون سابق نعرفة بشخص مِنْ الموجودين مِن أهل الدار، وزميلتنا يولريكة جاءت متأخرة، وأخذت مكانها مع النِّسوة، مع تغطية شعرها بشال أسود. شعرت بيَّ أنني غريب هنا وحسبتني أخجل مِنْ تناول الطَّعام، فأخذت بين الحين والآخر تمدني، عبر الذَّين يطوفون بالصحون وعلى وجبات، وحسب أنواع الطَّعام.

لكنها لحظات ويتقدم نحوي الكاتب السُّعودي الدُّكتور إبراهيم عباس نَتَّو، وناداني باسمي، من دون سابقة معرفة مباشرة معه، ثم قام وشاور المعمار عنقاوي، بعدها أعاد المعمار التَّرحيب بيَّ بكلمات كريمة، قائلاً: نريد استضافتك في المجلس القادم للحديث عما تشاء وبحريتك. شكرته واعتذرت له بأن سفري سيكون الاثنين، وموعد المجلس عادة الثُّلاثاء.

ما لاحظته، أنك لا تزور مكاناً ثقافياً أو داراً إلا وتودع إلى خارج الدَّار بمثل ما استقبلت مِنْ ترحاب، مع السُّؤال: هل معك سيارة! هكذا ودعني صاحب الدَّار ونجله، وظل الأخير واقفاً حتى اطمأن على حضور مَنْ يوصلني إلى الفندق، مع اعطائي كارته الشَّخصي قائلاً: إذا احتجت لأي شيء ما عليك إلا رنة في التَّلفون.

ندوة
نادي جَدَّة الثَّقافي

من عادتي شراء جرائد البلد الذي أزوره، على مدى أيام مكوثي فيه، فمنها أتعرف على الحراك الثَّقافي، ومستوى الكتابة، وما يفيد مِنْ أخبار. لذا حرصت على الإطلاع على الجرائد السعودية يومياً: الرِّياض، والمدينة، وعكاظ، والجزيرة وغيرهنَّ، قرأت إعلاناً في جريدة «المدينة» عن افتتاح مؤتمر للشُّعراء السُّعوديين بجَدَّة تحت عنوان «ملتقى قراءة النَّص». كانت المناسبة احتفاء بشاعرين سعوديين هما: حسن عبد الله القرشي، ومحمد الثبيتي، يقيمه النَّادي الأدبي الثَّقافي بجدة (من 3/30 - 1/4/ 2010).

أخذت العنوان: فندق الحمراء بشارع فلسطين، وعزمت على الحضور، فما معنى زيارة مكان لا تلتقي بمثقفيه ولا تستطلع ثقافته، وليس هناك أفضل مِنْ هذه المناسبة، مع علمي أن النَّاس هنا، على مختلف المشارب، طيبون لا أظنهم سيسألون عن الدَّعوة، أو أنهم سيمنعونني من الدُّخول.

مع ذلك كانت الفكرة تدور برأسي، كيف أذهب إلى مؤتمر لعلَّه خاص ولم أدع إليه، ولم يكتب في الإعلان أنه الدعوة عامة، فلعل في ذلك شيء من الحرج لي ولهم، ففي ذاكرتي ثبت ذلك المثل «مَنْ أتى بلا عزيمة يجلس بلا فراش». لكن ما أن دلفت إلى بوابة مكان انعقاد المؤتمر وإذا بالصديق الشَّاعر محمد الحمد، رئيس نادي حائل الأدبي، يقف أمامي وجهاً لوجه. ماذا تفعل هنا؟ أنا الذي سألت! يا للجرأة والتَّجاوز. قال: تفضل لدينا مؤتمر للشِّعر.

لي معرفة بالشَّاعر الحمد سابقة، امتدت بيننا صداقة منذ حضور مؤتمر الخطة الثَّقافية لدول التَّعاون الخليجي المنعقد بالكويت (أيار 2008)، وبقينا على تواصل، وسبق أن التَّقيته في مهرجان الجنادرية، لكن بشكل خاطف، ولم أعلمه بأني سأزور جَدَّة، فالمشاريع، عند السَّفر وحضور المهرجانات، تبقى أفكاراً يعتمد تحقيقها على المصادفة والمزاج. جلست بترحيب مِنْ الحمد، وإذا برئيس الجلسة يرحب بيَّ أمام الحضور بالاسم، وهنا تأسفت على مراجعة نفسي وعدم الاطمئنان لهؤلاء البشر، بأنهم لا يسألون سؤالي: ماذا تفعل هنا! إنما تفضل وزيادة بالكرم ترحيب مِنْ رئاسة الجلسة.

عادت بيَّ الذَّاكرة، وأنا استمع للمداخلين، إلى صيف 1993 عندما حضر الشَّاعر السُّعودي حسن عبد الله القرشي بصحبة

سفير إيران الشَّاهنشاهية الأديب جعفر رائد،، عندما قدم الأخير محاضرة عن عمر الخيَّام بديوان الكوفة الكائنة وسط لندن. فبعد أن أنهى السَّفير محاضرته استدعى الشَّاعر القرشي ليلقي قصيدته، أمام الجمهور، وكانت مهداة للفنانة الرَّسامة العراقية ليلى العطار (قُتلت 1993)، التي قضت بالقصف الأمريكي، يوم دكت صواريخ كروز مبنى المخابرات العراقية ببغداد فتأثر منزلها القريب بالمنطقة. لقد ظن القرشي أن المجتمع الذي سيسمع عراق، ليقدم له الأعزاء بالفنانة، لكنه لم يكن يتوقع المفاجأة السيئة التي ستواجهه.

كان أغلب الحضور مِنْ الجمهور العراقي المعارض لنظام صدام حسين، وما أن تفوه القرشي بإهداء القصيدة للعطار حتى سمعنا الجلَّبة تعلو تدريجياً، ثم صاح الصَّائح: كلنا ضحايا صدام، إنها فنانة النِّظام! فما كان مِنْ حسن القرشي إلا الانسحاب بكلٌ أدب كاظماً غيظه، من على المنصة، وهو يتمتم: طيب طيب خلاص خلاص انتهينا!

كانت ردة فعلنا خارج المعقول، فمِنْ المفروض أن نسمح للشَّاعر إتمام قصيدته، ومَنْ الذي أكد أن الرَّسامة العطار ضحية ذلك القصف كانت مِنْ عملاء النِّظام؟! وربما أُخذت بجريرة ما سمعناه عنها، بأنها رسمت صورة بوش الأب، تلك الصُّورة التي

وضعتها الحكومة العراقية عند بوابة فندق الرَّشيد، كي يدوس عليها الدَّاخل والخارج، وجل النزلاء كانوا مِنْ الأجانب، وظلت هكذا حتى رُفعت بعد الغزو الأمريكي وسقوط النِّظام (أبريل 2003). وربما كان رفع تلك الصُّولاة الإنجاز الأول الذي قام به الأمريكان بعد دخولهم القصر الجمهوري.

أقول: مَنْ له الحق بالفصل في هذه التُّهمة! لكن ما عجبت له، وسمعناه مؤخراً أن الحكومة العراقية اعترفت للمتضررين الأمريكيين، في حرب الخليج الثانية 1991، بأربعمائة مليون دولار، ولا أحد طالبهم بدم الفنانة ليلى العطار، وغيرها من ضحايا القصف العشوائي المتكرر.

حلت ساعة الغداء، فقلت في نفسي لابد مِنْ الانسحاب، فأنا لستُ مِنْ المدعوين، ولما هممت بالخروج منعني الجميع وقالوا لابد مِنْ الغداء وإكمال الجولة الثَّانية مِنْ المداخلات. جرى الحديث في الاستراحة عن التُّراث والمخطوطات. سمعت الباحث عبد المؤمن بن عبد الله اليقين يتحدث عن قراءته الإعلامية للرَّسائل النَّبوية التي صنف كتاباً فيها، واعتذر لعدم تمكنه من إهداء نسخة لي، فمنزله بعيد وقد أزف الوقت لكنه بعد لحظات أتى مسروراً مطمئناً إلى ضمان نسخة مِنْ الكتاب بعد اتصاله بنجله، وبالفعل قبل انتهاء الملتقى حضرت نسخة الكتاب.

كان قضاء الاستراحة بجلسة ممتعة جداً مع الكاتب محمد عبد الواحد، بسيل أحاديثه المتواصلة التي يصعب على الآخرين قطعها بمداخلة ولو بإشارة، كان سيد الجلسة مِنْ دون منازع، وهو أحد كُتاب جريدة «عكاظ» السُّعودية، ويكتب في صحف أُخر، لكن في عكاظ على ما أظن له عمود ثابت. قص علينا، ونحن نحيط به، مثل شيخ وتلامذته، قصته مع الرَّئيس الأوغندي عيدي أمين، عندما طُلب منه أن يكون أحد مستقبليه، العام 1975، ويكون كمرافق لوفده. كان ينظر مِنْ الزُّجاج والرئيس الأوغندي ينزل مِنْ سلم الطائرة ممسكاً بيد ابنه الصَّغير، وهو الفارع الطُّول ومحمد عبد الواحد ذو قامة قصيرة إذا ما وقف إلى جانبه سيبدو أصغر مِنْ ابنه.

خاف مِنْ المشهد واعتذر عن أن يكون في خدمة الرَّئيس العملاق، قائلاً: لن أكون مرافقاً مع هذا! أَما ترونه كيف يمسك ابنه فكيف أبدو إلى جانبه؟ سيضعني على كتفه ويسير بي! لكنه بعدها ندم على رفضه بعد أن وضع في موقف مع وزير داخلية بلد عربي لا ينام ولا يهدأ، ويطلب منه مطالب عجيبة غريبة، يسأل عن كل حائط يمر فيه، فالواجب على محمد عبد الواحد ألا يرقد إلا بعد رقود الوزير، والوزير ساهر لا تأخذه سنة نوم. ماذا يفعل بمطالبه العجيبة والعصية على التَّحقيق في السَّاعات المتأخرة من الليل، كطلبه لقاء مسؤول كبير مثلاً.

قضينا مع محمد عبد الواحد حوالى السَّاعتين أو أكثر من دون إحساس بالزَّمن، لكثرة أحاديثه وسخريته مما مضى ومما سيأتي، نبش مع آخرين من جيله الحاضرين الرُّدود التي كتبها ضدهم وكتبوها ضده، وكيف انتصر عليهم وافحمهم من قبل عشرين أو أكثر من السنين، وتراه مازال يتحداهم ويذكرهم بانتصاراته عليهم.

مكتبة
المسجد النَّبوي

لم يبق متسع من الوقت أمامي، ولا بد مِنْ زيارة المدينتين المقدستين: مكة والمدينة، وهما الأقرب إلى جَدَّة، وهناك طريقان إليهما، مِنْ دون أن يمر أحدهما بالآخر. اتصل بيَّ الباحث محمد رضا نصر الله، وسألني إذا ما كنت أرغب بحضور مؤتمر حول الإرهاب بالمدينة، فقلت هي مناسبة لزيارة المدينة وحضور المؤتمر.

انطلقت صباحاً مع عمر، وهو شاب طيب للغاية، حضرمي الأصل، ولد بجَدَّة، حيث قَدم جده للعمل فيها، لكنه مازال يحمل الجواز اليمني، فالتجنيس بالمملكة العربية السعودية شأنه شأن بقية البلاد العربية صعب المنال، فالجنسية لا تُمنح بسهولة، لا صلة لطول الإقامة أو الولادة بمنحها. انطلق عمر سريعاً، وكلما حاولت تنبيهه إلى السرعة، قال: لا تخف فالمكتوب يصير! ولا يدري كم أقلقتني جبريته هذه!

كان عمر ينتظر الذّهاب إلى حضرموت للاحتفال بزواجه مِنْ ابنة عمه، قلت له: هل تحبها؟! قال: هي ابنة عمي! وقرر السَّفر عبر الطَّريق البري جنوباً حتى حضرموت، للزَّواج هناك وجلبها معه.

سمعته كلما أراد تنبيه شخص، غير عربي، لسؤاله عن الطريق، يناديه بـ «يا محمد»! فقلت له: هل تعرفه! قال: لا، إنما جرت العادة أن ينادى على مثل هؤلاء بهذا الاسم. الآن فهمت ما كان يفعله صديقنا مشاري الذَّايدي، ونحن بالرِّياض عندما طلب مِنْ أحدهم أن يفسح الطَّريق لنا.

أول ما تصادفك بعد الخروج من جَدَّة مبانٍ بعيدة، قال لي عمر: إنها جامعة الملك عبد الله الجديدة (كاوست) التي كانت مادة للحوار بالرِّياض، ومِنْ بعد بالمدينة، حول قضية الاختلاط فيها كخطوة جريئة. ثم لاحت لنا مخيمات بيض، ليست خيام مِنْ قماش، إنما مِنْ حجر، يشير سهم إليها مكتوب عليه: مبنى الحجاج، حيث نزولهم وتجمعهم بجَدَّة قبيل الانطلاق إلى مكة والمدينة. فبمكة لا تهبط الطَّائرات، ولا تحوم فوق الحرم المكي، مثلما سمعت.

رأيت في الطريق قافلة مِنْ الجمال تتهادى إلى أحد الوديان، وليس هناك تعبير عن هذا المشهد أدق مِنْ قول الشَّاعر (الثعالبي، فقه اللغة):

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطيِّ الأباطح

كنت أقرأ أسماء المدن والقرى، التي نمر بها، وكأنني أعرفها منذ زمن بعيد، وذلك لتكرارها في كتب التَّاريخ والتَّفسير والأدب وأشعار الجاهلية والإسلام: ينبع، وعسفان، ورابغ، وذهبان، وابحر، وصعير، وبدر، وتبوك. ثم مفرق يتفرع شمالاً باتجاه سوريا والأردن، ولوحة نقشت عليه عبارة طالما سمعت بها: «لغير المسلمين»! فمذاهب المسلمين لا تجيز دخول غير المسلمين إلى مساجدهم، فكيف الحال بالحرمين!

إلا الإمام أبو حنيفة النُّعمان(ت 150 هـ) أفتى بدخولهم حتى الكعبة، معتمداً على رواية صلاة مسيحيي نجران بالمسجد النَّبوي بقبول مِنْ النَّبي نفسه، والرِّواية وردت واضحة في السِّيرة النَّبوية لابن هشام، بينما الشَّيخ ابن قيم الجوزية(ت 751 هـ) اعترض على أبي حنيفة لفتواه تلك في كتابه «أحكام أهل الذِّمة». ومعلوم أن ابن قيم أحد أعمدة الفقه الحنبلي، وهو أشهر تلاميذ ابن تيمية. بعد قليل ينتصب أمامنا جبل بلونين: أسود وأصفر، ومساجد مختلفة الألوان، تبدو الصُّورة عشوائية بين منارة وأخرى.

كنت متحفزاً مشدوداً لمشهد المسجد النَّبوي، فالذَّاكرة محملة بالحوادث التي جرت حوله في صدر الإسلام، وما بعد

النَّبي، وكيف كان عام الرَّمادة (18 هـ)، الذي تجاوز فيه الخليفة عمر بن الخطاب (اغتيل 23 هـ) عقوبة السَّرقة، واستقدم الطعام من بقية الأمصار، ولأنها عاصمة الإسلام قال عمر في أهل مصر عندما امتنعوا مِنْ حفر قناة ما بين بحر الرُّوم (المتوسط) وبحر العرب (الأحمر)، مثل قناة السُّويس اليوم: «أخرب الله مصر في عمران المدينة وصلاحها» (الطبري، تاريخ الأمم والملوك).

أين هي حجرات الرَّسول، ومسجد قباء، ومسجد القبلتين، أين جرت معركة بدر، وأين جبل أُحد الذي يسور المدينة. شغلتني كلُّ هذه الأسئلة، فأنا لثلاثين عاماً لم أقرأ وأكتب إلا في تلك الحوادث، باستثناء النَّادر من الكتب خارج التَّاريخ والتُّراث. رويداً رويداً بدأت معالم يثرب تتضح، وإذا بسهم يشير إلى مسجد قباء عند مدخل المدينة. يتكون مسجد قباء من أربعة منائر بيض شاهقة، ولافتة كتب عليها أثرٌ عن علي بن أبي طالب (اغتيل 40 هـ)، فيه تحذير من الحدث بالمدينة المقدسة، «ملعون مَنْ يحدث فيها حدثاً أو يأوي محدثاً».

نزلت مِنْ الفندق مسرعاً لزيارة مسجد النَّبي وقبره. يبدو المسجد هائل الحجم، وعجزت عن عدِّ منائره إلا بعد مجهدة، بسبب حجب بعضها بعضاً، أما القباب فهناك القبة الخضراء الكبيرة، وهي فوق قبر النَّبي، وقبتان بيضائتان فوق قبري ملَّ

مِن الخليفتين أبي بكر الصِّديق وعمر بن الخطاب. دخلت رواق المسجد، وسط غابة من الأسطوانات، وكان لابد من صلاة الزِّيارة، وهي ركعتان، وليس هناك مَنْ ينظر لهيئة صلاتك، فمِنْ ناحية إرسال أو سدل اليدين يتداخل فيها عادة بين السُّنَّة والشِّيعة، حيث المذهب المالكي والشيعة يتخذان الهيئة نفسها.

كيف اختلف الدَّهر هذا الاختلاف! وكيف تحول التَّسامح إلى شدةٍ، لدى أغلب المذاهب، عدا مذهب أبي حنيفة النُّعمان! عندما نظرت إلى أروقة المسجد النَّبوي وتذكرت ما قرأته في سيرة صاحبه وهو يستضيف قساوسة نجران، يلبثون بالمسجد، ثم يُصلُّون متوجهين إلى المشرق، أي الصَّلاة التي يصلونها في كنائسهم، قرأت في السِّيرة النَّبوية لابن هشام (ت 213 هـ) ما نصه:

«لما قدموا على رسول الله (ص) المدينة، فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر، عليهم ثياب الحبرات (برود يمنية- المحقق) جبب وأردية، في جمال رجال بني الحارث بن كعب. قال: يقول بعضهم لما رآهم من أصحاب النبي، صلى الله عليه وسلم، يومئذ: ما رأينا وفداً مثلهم، وقد حانت صلاتهم، فقاموا في مسجد رسول الله، يُصلُّون، فقال الرَّسول، صلى الله عليه وسلم، دعوهم! فصلوا إلى المشرق». وعلى ما يبدو صادفت زيارتهم يوم الأحد، حيث ميقات صلاتهم.

عند المرور مِنْ أمام القبر النَّبوي، حيث الحجرات، كان يقف شرطي وأحد أفراد هيأة الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، أو ما يسمى محلياً بالمطاوعة، وتسمى عند الغرب بالشُّرطة الدِّينية، سمعت بهذا المشهد من الحِجّاج، الذين أدوَّا الفريضة مِنْ منطقتنا، وكان بودهم تقبيل القبر، والشفاعة عنده، فهم يفعلونها مع أي صاحب كرامة، أو شيخ من شيوخ الدِّين، فكيف بقبر النَّبي!

سألتهما هل أتمكن من التقاط صورة، قال رجل الهيأة بأدب: لا يجوز! مع عبارة سلم.. سلم، أي السَّلام على صاحب القبر. حاولت أن استغفل رجل الهيأة والشُّرطي بسؤالهما عن صاحبي القبرين الآخرين، على الرَّغم مِنْ معرفتي المسبقة بهما، كي يستغلها صاحبي ويلتقط صورةً لي، لكنهما انتبها، وأجاباني: أنهما أبو بكر وعمر، مع عبارة: سلِّم.. سلِّم.

حاولت أن أخذ فرصتي كي أربط بين ما قرأته وكتبته وما أشاهده الآن، قمت أحسب الشَّبابيك، وأقيس من خلال الفتحات مساحات الحجرات، تلك التي كانت خارج المسجد النَّبوي، حيث أمر الوليد بن عبد الملك (ت 96 هـ) ابن عمه أمير المدينة آنذاك عمر بن عبد العزيز (ت101هـ) بإدخال الحجرات، بعد هدمها، داخل المسجد لتوسعته، وعمر هو الذي شيد المنارة فوق المسجد

ليؤذن منها المُؤذِّن، وأحسب أنه جلب الفكرة من والده عبد العزيز ابن مروان، حيث قلد منارة الإسكندرية وجعلها للمسجد، لذا لا أجد هناك أصلاً دينياً للضجة التي كانت ضد قرار سويسرا (العام 2010) بمنع بناء المنائر على المساجد، فالنَّبي والخلفاء الرَّاشدون صلوا بالمسجد وهو بلا منائر.

غابات مِنَ العمائر

ما بين مسجدي قباء والقبلتين مسافة قريبة، والأول مثلما قرأنا في التَّاريخ أن أصل المكان بئر تعرف بقباء، أما القبلتان فيرجع أصل التَّسمية إلى الصَّلاة فيه قبل ورود النَّبأ على المصلين بتحول القبلة، فجرت فيه الصَّلاة إلى جهة الشَّمال حيث القدس، وإلى جهة الكعبة، حسب الآية: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: 144). وهما على ما يبدو أكبر مسجدين بعد المسجد النَّبوي، الذَّي تشاهد منائره ومنائر مسجد القبلتين مِنْ على بُعد.

لكن الملاحظ أن البناء الشَّاهق قد ارتفع، مِنْ فنادق، وشقق سكنية، ومكاتب، وحاصر المسجد النَّبوي الذَّي توسع على مراحل عبر التاريخ، بدأت منذ العصر الرَّاشدي وحتى العصر السُّعودي الحالي، ولا أظنه سيتوسع بعد، إلا إذا جاءت التَّوسعة على حساب

تلك الأبنية العملاقة، التي تحيط به. كنت أظن بعد الخروج من بوابة الفندق أنني سأهتدي بسهولة إلى المسجد، فما بيني وبينه سوى شارع واحد، لكن الغابات من البناء تحول دون النَّاظر. وتبدو هذه واحدة من مواضيع الحوارات التي سمعتها بالمدينة وجَدَّة، بينما لم تكن ذات شأن داخل الرِّياض، أو أي مكان مِنْ نجد، وهو المحافظة على الإرث العمراني للمدن الحجازية، وفي مقدمتها المدينة ومكة.

قال لي أحدهم: إن الأعداد الهائلة مِنْ الحِجَّاج والمعتمرين والزَّائرين حتمت وجود هذا البناء، فأين يقيم هذا العدد على مدار السَّنة، والذي يشتد في موسم الحج، مِنْ غير الَّذين يرغبون بالمجاورة، والعاملين داخل المسجد نفسه لولا هذه الأبنية العملاقة! قلت: ولو في فكرتي شيء من البعد عن الواقع، لكنها ممكنة التَّحقيق.

فالأرض مثلما نرى تمتد عبر صحارى شاسعة، وما أن تخرج قليلاً عن مدار المدينة حتى تنفتح لك أرض وسعها أكثر مِنْ حدِّ البصر، فيمكن أن تحول تلك الأبنية بعيداً بمسافة خمسة كيلومترات مثلاً، وتبقى دائرة المسجد والمعالم الأُخر وسط فضاء، يصلها الحِجَّاج أو الزَّائرون عموماً عبر قطارات تحت الأرض، والحال ينطبق على المسجد الحرام بمكة! ردَّ عليَّ قائلاً:

الكلام سهل لكن تعرف أن ثمن المتر مِنْ هذه الأرض غدا أغلى متر في العالم!

كانت فكرة تسقيف صحن المسجد النَّبوي ناجحة وعملية، مِنْ دون مضرة الصَّحن بسقف دائم، وما يعكسه ذلك على المكان مِنْ منع ضوء الشَّمس، والاختناق بسبب الزَّحام والسَّقف الثَّابت، وإزعاج وتكاليف استخدام وسائل التَّبريد العملاقة، الصالحة لكلِّ الفصول. إنها فكرة المظلات المتحركة، شاهدت عملية فتحها التدريجية عند الصَّباح الباكر، ثم غلقها مع حلول الغروب.

أقول: تلك المظلات التي لو استخدمت بكربلاء، للصَّحن الحائري، حيث جرى التَّسقيف الثابت، وما فيه من أضرار مستقبلية على البشر والمكان بالوقت نفسه، قد لا تحتمله الأرض الهشة بعد فترة مِنْ الزَّمن. كانت المظلات جميلة أنيقة وواسعة، تفترش الفضاء وكأنها أشجار الكاليبتوس الكثيف الظِّل، أو نخيلات ذات سعفات طوال، تُحوَّل أرضية المكان المكسوة بالمرمر غير الممتص للحرارة إلى سجادة باردة.

تقع عند زاوية من زوايا صحن المسجد النَّبوي مقبرة البقيع، التي سمعنا الكثير عنها في كتب التَّاريخ أو في المزارات، وقفت عندها، ففيها مِنْ أجساد شغل أصحابها الماضي، عند ظهور الإسلام. قبور بسيطة لا تعلو عن الأرض، مع أسماء أصحابها،

وهي على هذه الحال وفقاً للعقيدة الفقهية التي تسير عليها الدَّولة السعودية، بينما تتمنى شعوب أُخر وجود تلك القبور لتكون محل زيارات لا تنقطع، وعلتها قباب من الذَّهب الخالص، مثلما هو الحال عندنا بالعراق، وهي أمكنة ليست للتبرك فقط، إنما للرِّزق أيضاً، حيث مواسم الزِّيارات بلا انقطاع، وما ينتظره الأتباع من مرادات تحت سقف قبابها.

لم أر هناك فناً للقباب، مثلما هو الحال بالبلدان الأُخر، التي تسمح عقائدها بكثرة الأضرحة، منها المخروطية ومنها المقرنصة والمشوفة، مع اختلاف الأحجام والإرتفاعات، وهي آثار من العصور الخوالي.

وأنا أسيرٌ داخل الصَّحن النَّبوي مقلباً وجهي في فضائه، لحظتُ عنوان مكتبة المسجد النَّبوي، فعمدت إلى دخولها، بعد خلع الحذاء طبعاً عند بوابتها الخارجية. نظرت في رفوفها المكتظة بكتب الفقه والتَّاريخ والتَّفسير والدِّين في موضوعاته كافة، لمحت شاباً أفريقياً منكباً على مخطوط عربي، حييته وجلست بجانبه، واضح أنه قادم مِنْ إحدى دول أفريقيا السَّوداء، وكان موضوعه تحقيق تلك المخطوطة الفقهية، التي غاب عنوانها عن ذاكرتي. سألته كيف قدم إلى هنا، هل على حسابه أم على حساب آخر؟ قال: إنه تلقى بعثة للدِّراسة هنا مِنْ جمعية إسلامية.

بغفلة مِنْ رعاة المكتبة التقطت معه صورة، لكن عرفت بعد هذا أن التَّصوير للأشخاص لا يجوز، ويمكنني تصوير الكتب فقط، والأمر له علاقة، حسب ما أخبرني أحد المسؤولين، بأدب جم وصوت هامس، هو للحفاظ على الهدوء داخل المكتبة، ومنه أنه من المحرمات شرعاً. فالمكتبة مؤطرة بإطار ديني، فهي تتبع الرِّئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النَّبوي.

سألت عن تاريخ المكتبة، ومتى نشأت، فقيل لي إن هناك حريقاً شب بالمكتبة السنة 886 هـ، (1481 ميلادية). بمعنى أنها كانت موجودة قبل هذا التاريخ، وفيها ثروة من المخطوطات ما بعد الحريق في الأقل. لكن شكل المكتبة الجديد يعود الفضل به إلى مدير الأوقاف بالمدينة العام 1352هـ، (1933 ميلادية). وهناك مكتبات تسمى بمكتبات الوقف، التي أهديت إلى المكتبة، وأقدمها هي مكتبة الشيخ محمد العزيز الوزير، حيث أوقفها للمكتبة العام 1320 هـ (1902 ميلادية).

سألت عن قسم المخطوطات، بعد أن رأيت الشَّاب الأفريقي يدرس أحدها، فقيل لي إنها داخل المسجد النَّبوي، عند باب عمر ابن الخطاب، ويمكنك مراجعة القسم الخاص بها هناك. دخلت المسجد، ومِنْ الباب ذاته، فقيل لي إنها في الطَّابق الأعلى.

واجهتني عند الباب خزانة زجاجية معروضة فيها أدوات الخط القديمة، من فرشاة وأقلام خط ومحابر، وإذا مكتوب

داخلها: أدوات هاشم الخطاط البغدادي (ت 1973): «أدوات الخطاط محمد هاشم البغدادي، وبعض المسكوكات التي كتبها، البنك المركزي العراقي» (هكذا).

تمعنت في الأدوات، وهي عبارة عن صورة لريشات وأقلام قصب ملونة، وبعدها حدثني رئيس القسم المكتبي محمد بن عبد الرزاق الصَّانع عن هاشم الخطاط، وكيف أن لبغداد الرِّيادة في هذا الضرب مِنْ الفن، لهذا فإن إدارة المكتبة مهتمة بأثر هذه الشَّخصية، لذلك حرصنا أن تكون صورة أدواته في رواقها.

في ضيافة
نادي المدينة الأدبي

عند الظَّهيرة اتصل بي الباحث محمد رضا نصر الله يسأل عن إمكانية مصاحبته لزيارة النَّادي الأدبي بالمدينة؛ وأن افتتاح مؤتمر ضد الإرهاب سيكون السَّاعة التَّاسعة مساءً يوم 28 آذار (مارس) 2010، فوافقت من دون تردد، حيث وجدتها فرصة لزيارة النَّادي، والتَّعرف على أدباء المدينة.

كنت انتظر نصر الله ببهو فندق آخر، حيث سيعقد فيه المؤتمر المذكور، وإذا برجل يسلم عليَّ مِن دون سابق معرفة، وبلهجة حجازية صريحة، حيث بدأت أميز هذه اللهجة من بين اللهجات الأُخر، سألته عن شخصه قال: عبد الله فراج الشَّريف من مكة.

بعدها سألني: هل تنتظر أحداً؟ قلت: أنتظر صديقاً للذهاب إلى النَّادي الأدبي. قال: وأنا أيضاً أنتظر الشخص نفسه، فدخلنا

بالتَّعارف مِنْ دون مقدمات، وأخذ يسألني عن العراق، حتى فهمت أهمية أسئلته مِنْ علاقته الأسرية بالأشراف، ومنهم طبعاً العائلة الملكية بالعراق.

كان في استقبالنا بالنَّادي الأدبي الأكاديمي الدكتور عبد الله عبد الرَّحيم عُسَيْلان، الأستاذ الجامعي وعضو مجلس الشُّورى سابقاً، والشَّيخ الدُّكتور نايف الدَّعيس، تجولنا في صالات النَّادي، الذي يقع بعيداً عن مركز المدينة بعض الشيء، ونزلنا إلى صالة المُتحف التي جمعها عُسَيْلان بمعرفته: ماكنة قديمة، وتلفون قديم يرقى إلى عقد العشرينيات، مِنْ القرن الماضي، وأدوات طحن، وطبخ، وأفرشة وغيرها مِنْ التي استبدلها النَّاس بالأدوات الحديثة، ولوحات فنية، مع كتب قديمة ونسخ مخطوطة، وأدوات كتابة.

استنتجت مِنْ هذا الاهتمام، وفتح قسم بمقر النَّادي الأدبي للآثار، أن هناك رؤية جديدة تجاه الأثر، بعد موانع دينية، يرفضها عدد من رجال الدِّين باعتبارها انبهاراً بالماضي مما يشغل عن التَّدين، حسب رؤية السلفية الصارخة آنذاك. إلا أن عُسَيْلان، والذي لاطفته بالقول: إنك عَسلان، وليس عسلاً واحداً، لدأبك هذا، كان قلقاً، فالأمر ربما يعتمد على وجوده، ولا يدري بعده ما يحل بهذا المُتحف الصغير.

كان كتاب الأستاذ عُسَيْلان «تحقيق المخطوطات بين الواقع والنهج الأَمثل»، الذَّي أهداني نسخة منه، مدخلاً إلى الحديث عن تحقيق المخطوطات، وظهور محققين لا يفقهون شيئاً في هذا الفن، وليس لديهم الأمانة العلمية ولا الحرص على المعلومة وتوثيقها وارجاعها إلى أصولها عند التحقيق. وكم من المخطوطات فقدت أهميتها بسبب المحقق، وأين هؤلاء مِنْ محققين كبار مِن حجم: عبد السَّلام محمد هارون (ت 1988)، ومحمد أبو الفضل إبراهيم (ت 1981)، وكوركيس عواد (ت 1993)، وعبود الشَّالجي (ت 1996) وغيرهم الكثير. تناول كتاب الأستاذ عُسَيْلان شأن التَّحقيق اختيار النَّص، وفك رموزه، وقراءة نصه إلى كيفية التَّرقيم، من النُّقطة والفاصلة، إلى علامات التَّنصيص. فمن المعلوم أن التُّراث العربي ليس له شأن بالتَّحقيق، ولا الفهرسة، ولا التَّرقيم، وهو علم للمستشرقين فضل فيه.

بما أنه لقاء بين عراقي واثنين من أسرة الأشراف، وهما عبد الله فراج الشَّريف ونايف الدَّعيس، لا بد أن يذهب الحديث عن العائلة المالكة العراقية وإلى مصيرها المأساوي. سألني الشَّريف هل العراقيون كانوا يحبون فيصل؟ ويقصد الحفيد فيصل الثاني.

أجبت على السُّؤال بما أشعر به شخصياً، وما سمعته من مختلف طبقات العراقيين، بأن الحزن كان حقيقياً على شباب

فيصل الثاني (قُتل 14 تموز 1958)، واتخذت من عدم سحله مع بقية الجثامين (نوري السعيد وعبد الإله) موقفاً إيجابياً تجاهه. ففي تلك اللحظات كان إعفاء الجثة من السحل والتمثيل يُعدُّ رحمة وفضلاً كبيراً! وما لفت انتباهي أني لم أجد أحفاد الأشراف حاقدين على الزَّعيم عبد الكريم قاسم (قتل 1963)، وكأنهم تفهموا ما جاء في مختلف الرِّوايات مِنْ أن قاسم كان كارهاً لما حصل لفيصل.

بعدها سألني الشَّيخ نايف الدَّعيس عن عبد الإله، هل كان العراقيون يكرهونه، أو لهم موقف منه! أجبته نعم، كان عبد الإله (قُتل 1958)، وهو الوصي، غير مرغوب به، من قِبل طبقات واسعة مِنْ العِراقيين، وربما هو ورئيس الوزراء نوري السعيد (قتل 1958) جنيا على العهد الملكي، ولا تُفَسَّر القسوة التي وقعت عليهما بعد قتلهما إلا بعدم القبول بسياستهما، فهما كانا وراء تعطيل العمل بالدُّستور، وإلغاء انتخابات نيابية، أو جعل الدِّيمقراطية هشةً آنذاك، ويتحملون مسؤولية مَنْ أُعدم مِنْ القوميين والشيوعيين، وتعليق جثامينهم على الأعمدة ببغداد، حصل ذلك في سنتي 1941 و 1949، فتولدت مِن تلك الممارسات مشاعر ثأرية نُفذت في صبيحة 14 تموز 1958.

إضافة إلى التبعيد أو النفي والسُّجون التي وقعت على أتباع أولئك، مما عكس الآية ونشط أتباع الأحزاب، واشار إليهم النَّاس

بالوطنيين وخصومهم، وهم أعوان السُّلطة آنذاك بالرجعيين وأعوان الاستعمار، ومع ذلك ليس مِنْ الانصاف نفي إيجابيات العهد الملكي. و ما حصل لعبد الإله والسعيد مِنْ قتل وسحل وتمثيل لا يمكن تبريره بأي شكل من الأشكال.

كان الدَّعيس شديد الحب لعلي بن أبي طالب، وهو على ما قستُ شافعي المذهب، فحكى بغضب عن شيخ متطرف حاول المساواة بين علي وخصومه، الذَّين رفعوا السَّيف بوجهه، حتى قال: إلا علي فهو خط أحمر في الحوارات، لا يجوز مسه بمثل هذا التَّصور. حسبت الأمر أو قسته على صلة الإمام محمد بن إدريس الشافعي (ت 204 هـ) بالعلويين.

لم أعجب أن أجد مثل هذا الموقف إزاء آل البيت، من قِبل شافعي أو حنبلي على حد سواء، لكني عجبت كثيراً لتضخيم الخلاف المذهبي، وتلك الفكرة المخزونة في ذاكرتي، وهي غير صحيحة على الإطلاق، فليس هناك مَنْ يبغض آل البيت من بقية المذاهب، ولا أثر للصراعات التي كانت في صدر الإسلام والعهد الأموي، وأقصى ما يُذكر هو المساواة بين الصَّحابة الخصوم. وينقل ابن تيمية عن الإمام أحمد بن حنبل لما سُئل: «أما تحب يزيد؟ فقال: وهل يحب يزيد أحد يؤمن بالله واليوم الآخر» (ابن تيمية، رأس الحسين)!

طُرح أيضاً موضوع الشيعة بالعراق، ما بعد سقوط النِّظام السَّابق، شعرت أن هناك عاطفةً جامحةً لدى المتحدثين معي لاستقرار العراق، فهو بالنِّسبة لمَنْ سمعت منهم أمل في الانبعاث الثَّقافي، وكأنهم يتحدثون عن بغداد عبد الله المأمون (ت 218 هـ)، تلك الصُّورة لم تفارق الكثيرين ممَنْ التقيتهم بنجد والحجاز على حد سواء، مع تخوف غير مخفي مِنْ إيران ودورها كثورة لا كشيعة، فما بين إيران الشاهنشاهية وهذه الدِّيار أواصر وصلات، ومعلوم أن الشاه كان شيعياً ولم يكن سُنياً، فوالده اسمه رضا، وولده اسمه رضا، وولده الثَّاني اسمه علي رضا. وبلا ريب أن إيران تتعامل مع بقية البلدان بصفة الثَّوة لا صفة الدَّولة، فالسفراء الإيرانيين السَّابقون كانون رُسل دولة وبعد الثَّورة الإسلامية غدوا رُسل الثَّورة لا يطمأن لهم، أينما يجدون شيعة يظنون أنهم أتباعها، ويفكرون بتأسيس أحزاب الله.

قلت: إن التَّصور عن شيعة العراق على أنهم يتبعون إيران في سياستها غير صحيح، ربما هناك أحزاب أو جماعات تتفق مع إيران على اعتقاد أنها تخدم بلدها، ولكن تلك العلاقات لا تخرج عن إطار ما بين إيران والإخوان المسلمين أو حماس الفسلطينية مثلاً. إنه الإسلام السياسي، ومع ذلك في الإسلام السِّياسي العراقي، الشِّيعي قبل السُّنِّي، مَنْ يتوجس خيفةً مِنْ إيران الثَّورة لا الدَّولة.

حاولت ونحن على مائدة النَّادي الأدبي معرفة الموقف مِنْ الشَّيخ محمد حامد الصَّواف، على اعتبار أنه أحد العراقيين الموثوق به بالمملكة وكقيادي إخواني، فقد كان يدرس فترة من الفترات بمكة، وأصبح مستشاراً لدى الملك فيصل بن عبد العزيز (اغتيل 1975)، وكونه على المذهب الحنفي، ومِنْ الموجودين معنا مَنْ هم على المذهب ذاته، وكأني أريد أن أنصف الرَّجل، أو اتوثق مما وردني حوله، فقد كتبت عنه ما سمعته مِنْ آخرين، بخصوص محاولته إيذاء علماء العراق الذي كانوا يدرسون في الجامعات السعودية، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك. سألت: هل تعرفون الشَّيخ الصَّواف!

تمتم عبد الله الشَّريف بالتَّعوذ! فقلت: لِما! قال هذا الرَّجل سياسي قبل أن يكون رجل دين، وحكى لي قصة حاول الصَّواف، وهو مدرسهم آنذاك، توريطه فيها. قال: تحدث يوماً خلال الدَّرس عن الفِرقة الطائفية، ووجوب محاربة كذا وكذا، وكأنه أراد جرنا إلى حرب طائفية، فقمت وقلت له: دولتنا أعرف بأحوالنا، ولا داعي لإثارة مثل هذه الموضوعات والخلافات!

قال الشَّريف: ماهي إلا أيام وناداني أحد المسؤولين الكبار بمكة، ولما دخلت عليه ضحك قائلاً: أنتَ! وكأنه لم يصدق ما ملأ الشَّيخ الصَّواف سمعه ضدي، ولم يعط لما أوصله لهم من خطري

على أمن الدَّولة أي اهتمام، وقال لي بصراحة: إن هذا الرَّجل أتى بكذا وكذا، ولكن لا تهتم! ثم التفت الشَّريف نحوي قائلاً: أيكفي هذا جواباً لسؤالك عن صوافكم! قلت: كفاية.

ليس الصَّواف وحده مَنْ أراد تسييس الدِّين، والعمل بحجب الثِّقة عن الآخرين وتكريسها للإخوان المسلمين فقط، وعلى ما يبدو لم يظهر هذا التَّطرف المريع إلا من أردانهم. فعبد اللّه عزام، وهو أحد رموزهم، كان وراء تأسيس ظاهرة الأفغان العرب، وما تفرع عنهم مِنْ القاعدة وغيرها، أمره ليس مستوراً.

كان مجيء هؤلاء إلى المملكة كنشاط مضاد للنَّاصرية، ومواجهة ذلك الظَّرف العصيب عبرهم، فهيمنوا على التَّربية والتَّعليم على وجه الخصوص، وهي ضالتهم في كلِّ البلدان والأزمان، حيث منها يحدث التَّغيير لصالح إسلامهم السِّياسي والحزبي، ومع تنظيمهم المحكم، إلا أنهم لا يريدون الاعتراف بالحزبية.

لكن جماعة الصَّواف وتلاميذه تقدموا بطلب تأسيس حزب الإخوان المسلمين بالعراق، وباسم الحزب الإسلامي العراقي، ثم رفضه حزبه نفسه في ما بعد. لهذا تحدث الكثيرون مِنْ المثقفين السُّعوديين، بنجد والحجاز، عن دور هؤلاء في تسييس السَّلفية، وتحويل بلدان الخليج إلى خزائن تمويل لمشاريعهم. وقد حفل

كتاب مسبار الشَّهري بموضوعات وبحوث عن الإخوان بالجزيرة والخليج.

بعد الغداء بضيافة النَّادي الأدبي بالمدينة المنورة لم يتركنا رئيسه العُسَيْلان بعد الغداء فدعانا جميعاً لتناول الشَّاي بداره، القريبة إلى حد ما مِنْ النَّادي الأدبي، وكأنه لم يقتنع باستضافتنا إلا بزيارة عتبة داره العامرة بأهلها. استمر الحوار وغرب وشرق حول معروف الرَّصافي وكتابه الشَّخصية المحمدية، إلى علاقته بجميل صدقي الزَّهاوي، وما كان منه في العهد الملكي، ووجدت الشَّيخ الدَّعيس مستغرباً عندما علم من الباحث محمد رضا نصرالله بأني أنوي تصنيف كتاب خاص بأبي حنيفة النُّعمان، لولعي بهذا الرَّجل وتتبعي لأخباره وفقهه، قبل أن يختلط بما أدخله إليه تلاميذه، وحُسب على مذهبه، واعتبره مفخرة أهل العِراق.

جبل أُحد وتل الرُّماة

يصعب مغادرة المدينة من دون رؤية جبل أُحد، ذلك الثَّابت في المخيلة عبر المدرسة الابتدائية وما بعدها، وعلى وجه الخصوص ما يتعلق بهزيمة المسلمين، ومحاولة قتل النَّبي حينها، ومَنْ قُتل من الأشاوس على سفح ذلك الجبل، وأولهم الحمزة بن عبد المطلب(3 هـ)! صاح عمر على رجل أفغاني على ما يبدو: يا محمد أين الاتجاه إلى جبل أُحد ومقبرة الشهداء! والتفت الرجل إليه من دون استغراب، فهم ألفوا ذلك النداء من السعوديين، مثلما تقدم الحديث، وأشار إلى جهة المكان، وبلهجة لا أدري كيف فهمها صاحبي عمر.

قُلت جبل أُحد يحتضن المدينة، مِنْ إحدى جهاتها، ويمتد طويلاً، وهو مائل إلى الحُمرة، وعلى ما يبدو هو غني بمادة الحديد، هكذا تعلمنا في المدارس، بما تعنيه ألوان التُّراب والصُّخور. اقتربنا مِنْ حافة الجبل، وبالمقابل هناك تل يُعرف بتل الرُّماة، وهو المكان الذي رمى به المسلمون المشركين، لم أر فوقه سوى جماعات من الأفغان، ومِنْ شعوب ما وراء النهر.

تكشف ذلك من أجسادهم وبشرات وجوههم وألسنتهم. وقفت متأملاً التاريخ، غارقاً في غوره، لكن لستُ أمام كتاب بل في مسرح الحدث نفسه. هناك إلى اليمين بناء متواضع، مسور بإحكام، إنه قبر الشُّهداء، ولوحة كبيرة كتب عليه الحديث، الذي سجتله في «دفتر الفوائد»: «هذه طابة، وهذا أُحد جبل يحبنا ونحبه». وأخرى: «أتاني في الليلة آتٍ مِنْ ربِّي، فقال: هذا الوادي المبارك يَغني وادي العقيق».

في المساء ذهبنا إلى مطعم حضرمي، الجلوس فيه على الأرض في صالة مربعة، والزبائن يتحلقون حلقات داخلها، كأنها حلقات دروس الفقه في صحون المساجد والأضرحة، ينتظرون الطَّعام يأتيهم بأطباق مدورة، نسميها بالعراق «الصُّواني»، الأكل بالأيدي، وربما تكون غريباً عندما تستعمل الملعقة. جلس بقربنا ثلاثة رجال، يتحدثون بلهجة وشت لي أنهم قادمون مِنْ عمق الصَّحراء، وكذلك هيئاتهم، ليس لها صلة بالعالم المحيط. حاولت التقاط صورة معهم، رفض أحدهم رفضاً باتاً، حتى لم يرد بكلمة شكر عندما دعيناهم لتناول الطعام معنا قبل وصول ما ينتظرون.

أوحى لي تصرفهم، وعلى وجه الخصوص هذا الرَّجل، القاتم السُّمرة، بتلاوة الآية في قلبي: «إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ». ليست هيئاتهم هي ما أوحت لي بتذكر هذه

الآية إنما أرض المدينة نفسها، والقرب مِنْ المكان الذي قِيلت فيه، وهو حجرات زوجات الرَّسول حيث المسجد النَّبوي، الذي لا يبعد عن المطعم سوى مسافة قصيرة. هنا أخذت أفكر، على الطبيعة، كيف كانت معاناة الرَّسول آنذاك، قبل خمسة عشر قرناً مع أجداد هؤلاء!

في الطَّريق إلى مكة

عدتُ مِنْ المدينة إلى جَدَّة، مِنْ دون حضور المؤتمر الخاص بالإرهاب، لأنه تأجل إلى المساء، وكنت على موعد في اليوم الثاني للتوجه إلى مكة. كان تحضير ملابس العُمرة بفضل الصَّديق عبد الرَّحمن العوشن، وهنا كان الرأي هل يبدأ الإحرام من الغرفة التي انطلق منها، أم مِنْ مكان الميقات، فأهل المعرفة قالوا: مادمت بجَدَّة فالإحرام يبدأ مِنْ الغرفة، التي تنطلق منها.

جاءني صاحبي عمر الحضرمي محرماً، وكم بان منسجماً بياض الإحرام السَّاطع مع بشرته السَّمراء الدَّاكنة، فقلت له: لم يسبق لي ارتداء الإحرام، فعلمني الطَّريقة، وماذا يكون على المتن الأيسر، وكيف يتم التَّوزر بهاا خرجت مِنْ الفندق بثياب الإحرام، وخلت أنني ألفت نظر الآخرين، لكن يبدو المشهد عادياً جداً، فالمئات يومياً يحرمون مِنْ الفنادق متوجهين إلى العُمرة حيث البيت الحرام، أو مَنْ الأجيال التي كانت تنزل السُّفن على شواطئها منذ القِدم.

مكة ليست بعيدة عن جَدَّة، فساعة أو أقل، تكون هناك، لكن الوصول مِنْ مدخل مكة إلى البيت قد يستغرق أكثر مِنْ هذا الوقت، فمكة مدينة مزدحمة إلى حد الاختناق، وكيف ستكون في موسم الحجيج، أو المواسم الخاصة بالعمرة! فهي مكانٌ تجاري مثلما كانت عير التَّاريخ. يأتيها النَّاس ﴿عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

وهي مازالت مثلما كانت ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾. وبالفعل أن تجد هاجر ماءً لرضيعها إسماعيل هو قوة في المعجزة، مثلما جاء في قصص الأنبياء، وهاجر التي طلب منها الربُّ أن تسعى سبع مرات بين الجبلين: الصَّفا والمروة حتى وجدت الماء بينهما، حيث ينبوع أو بئر زمزم. قد ترى بمطار جدة ماء زمزم محمولاً ببراميل بيضاء مع حقائب المسافرين بعد انتهاء موسم الحج أو العمرة.

حفظ الإسلام لمكة أهميتها ودوليتها، بتعظيم كعبتها، ووجب الحج إليه سنوياً، وفي موسم محدد. عدا هذا، إنها في عمق الصحراء، كان النَّاس يبكّون فيها أي يزدحمون، حيث الملتقى للعبادة والتِّجارة. وقيل اسمها مكة من الملك أي المص، ويأتي بمعنى الجذب، أي تمص النَّاس أو تجذبهم إليها كمص الفصيل ضرع أمه (الجوهري، الصَّحاح).

إنها بؤرة حضارة في وسط البداوة، أما القول سميت ببكة لأنها تبك أعناق الجبابرة (نفسه)، ففيه شيء من الصَّحة، مِنْ

باب أن قريش وهم سكانها عُرفوا باللقاح، أي غير القابلين بملك يملكهم (نفسه). ويُقال لبطن مكة بكة، فورد في الآية: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾.

مكة، مدينة محصورة بين الجبال ذات الشِّعاب، مِنْ الجهات كافة تقريباً، وما القول الذي سار مثلاً: «أهل مكة أعلم بشعابها» إلا لكثرة تلك الشِّعاب. ومِنْ أشهر جبالها: جبل أبي قبيس، الذَّي يطل على الحرم، وجبل قضا، وجبل لآلي وجيفان، وجبل هندي، وجبل النُّور وعلى قمته غار حِراء، ويُرى مِنْ مدخل مكة.

هذا ما قيل لي، وربما ترادفت الأسماء واختلفت المعاني وتباينت المواقع. عند المدخل تمر تحت قوس هائل ليدين تمسكان بكتاب القرآن إشارة إلى نزوله بمكة. ومِنْ دون تفكير أحالني مشهد القوس إلى نصب السَّيفين الضَّخمين في ساحة الاستعراضات عند المنطقة الخضراء ببغداد حالياً، شيد إثر الحرب العراقية الإيرانية.

عند الدُّخول إلى صحن المسجد الحرام أخذتني الأفكار يمينة ويسرة، وكأني اسمع النَّقاش حامياً مثلما كان في بدايات الإسلام، وقمت أفتش في زوايا الصَّحن عن أثر يدل على مكان دار النَّدوة، تلك التي لا تفسر بأقل مِنْ ليبرالية عصرها، مِنْ ناحية السِّياسة والدِّيانة أيضاً، فبمكة كانت تختلط الأديان والشُّعوب لأنها بيت الله.

كانت تجري بالنَّدوة كلُّ معاملات المجتمع مِنْ زواج وعقود وقضاء، وعلى حد وصف محمد بن جرير الطَّبري لها: «فيها كانت قريش تقضي أمورها»(تاريخ الأمم والملوك). وهي بمثابة دار الحكم «ما تُنكح امرأة ولا رجل مِنْ قريش إلا في دار قصي بن كلاب، وما يتشاورون في أمر ينزل بهم إلا في داره، ولا يعقدون لواءً لحرب قوم من غيرهم إلا في داره، يعقدها لهم بعض ولده». وأتت مفردة النَّدوة بمعنى المشاورة، وبها سميت «الدَّار التي بناها قصي، (و) سميت بذلك لاجتماعهم فيها للتَّشاور».

تقدمنا للعُمرة، ولابد مِنْ القراءة بكراس خاص بشعائرها، أو القبول بالطَّواف مع أحد الطَّوافين، الذي يقرأ ويردد بعده المعتمرون المهرولون، وهذا صعب على مَنْ يعرف القراءة والكتابة. وعند كلِّ دورة يجب أو يحبذ الوقوف للحظة والنَّظر إلى الرُّكن، من حيث البداية، والطَّواف سبعاً قد لا يستغرق ربع ساعة للقادر على المشي والجري، لكن كثرة المعوقين والعجائز يفرض التَّمهل في الطَّواف.

هناك مقام النَّبي إبراهيم، وكنت قرأت في أمهات التاريخ أنه كان يلاصق البيت، وأن الخليفة عمر بن الخطاب (اغتيل 23 هـ) هو الذي وضعه حيث هذه المسافة عن البيت، يترك مجالاً للتبرك بالحجر الأسود، انشغلت قليلاً بتلك الرِّواية، وبعدد الأيدي التي لمست هذا المقام عبر الدُّهور.

حيث أقام إبراهيم بعد أن أتى لزيارة هاجر وولده إسماعيل، وهما اللذّان عانيا من العطش في ذلك الوادي غير ذي الزّرع، حتى نبع لهما الماء مِن بين الحجارة كمعجزة من المعجزات، وأن السّعي بين الصّفا والمروة كان محاكاة لسعي هاجر من أجل الماء، هكذا كان عمر -وهو يسعى معي- يقص علي قصة تلك الشُّعيرة، فالآية التي نقرأها عند السّعي تقول: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّه فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّه شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.

أما سبب نزول هذه الآية، حسب كتب مفسري المسلمين ومؤرخيهم، فله عدة روايات: منها أن الأنصار كانوا في الجاهلية يحجون إلى مناة، ويمتنعون من الطّواف بالصّفا والمروة، فسألوا النّبي فنزلت الآية أعلاه. ورواية تقول: إن قريش كان تمارس الطّواف بهما، فلما جاء الإسلام تحرجوا من الطّواف فنزلت على أنه من شعائر الله.

ورواية أخرى تقول: إن أساف ونائلة كانا عاشقين ففسقا في البيت فمسخا إلى حجرين، وضع أحدهما عند الصّفا والآخر عند المروة عبرة لمَنْ اعتبر، فلما مر الزّمان نسي النّاس ما حدث فأخذا يقدسونهما على أنها معجزة إلهية، ولما جاء الإسلام تحرجوا عن الطّواف فيهما فنزلت الآية(الواحدي، أسباب

النزول). صحيح أن الأخبار تحدثت عن عري الحجيج، لكن كان لذلك أُصول وضوابط، ربما نجدها في قول هذه المرأة:

اليوم يبدو بعضه أو كلُّه

فما بدا منه فلا أحله

ليس مِنْ بين الأسباب شيء يخص سعي هاجر بين الحجرين، لكن الرُّواية التَّاريخية هي التي ثبتت في المخيلة، عما ورد في قصة عطش إسماعيل، وكان غلاماً يساعد أباه إبراهيم في بناء البيت، فلم تجد هاجر لابنها ماءً، فأخذت تصعد إلى الصفا ثم تعود إلى المروة لعلها ترى ماءً في الأفق، وفعلت ذلك سبع مرات حتى هبط جبرائيل وكانت المعجزة أن فحص الغلام الأرض بأصبعه فنبع منها ماء زمزم (الطبري، تاريخ الأمم والملوك، وقصص الأنبياء كافة).

رأيت زمزم الذي يباع ماؤه بالأسواق، كماركة تجارية، وأن الماء الذي بالحرم هو مِنْ تلك البئر، مغلقة بحجر عليه علامة، تقع في وسط مسافة السَّعي ما بين الصفا والمروة تماماً. كان الجبلان بارزين، إلا أنهما يكادان الآن يتسطحان مع الأرض، ولما سألت قيل إن الحجاج والمعتمرين أخذوا ما أخذوا منهما مِنْ الحجارة تبركاً. أما الآن فقد سور المروة بسوُّر مِنْ الزُّجاج يمنع أخذ الحجر منه.

أما الصَّفا فيبدو أنه حجارة صلدة كالصُّوان، وهذا ما جاء بمعاجم اللغة عن معنى اسمه، لكن ما أتوقعه أن مادة ما وضعت عليه وشدت من صلادته، ومنعت نبش أي ذرة من صخوره، التي بانت كصخرة واحدة مصقولة صقلاً. هناك علامة وسط المسعى عبارة عن نور أخضر، إذا وصلها الحاج أو المعتمر عليه بالهرولة حتى العلامة التي بعدها يصبح السَّعي مشياً.

جلست مع المعتمرين، مِنْ شتى الأجناس، على صخرة الصَّفا الباردة لشدّة الظِّل، وكان لابد مِنْ قص الشَّعر بعد الانتهاء مِنْ السَّعي، والقاصون، ولا يُقال لهم حلاقون، يشيرون بمقاصهم، فتقدم مني أحدهم وبانت لهجته أنه من أهل اليمن، وقبل قص الشَّعر قلت له لابد مِنْ جلب المحفظة مِن السَّيارة، فأنا بثياب الإحرام، وهي ليست فيها جيوب، وكنت أحسب أن العمرة تتم بالتخلي عن كلِّ ما يُحسب على الدُّنيا، والمال في مقدمتها. تبسم الرَّجل وقال: لا تهتم لا أريد أجرة! لكنه قال: أما اعتمرت أو حججت مِنْ قبل! قلت: لا، هذه أول مرة!

أين الحَجوُن؟!

عندما ترى الكعبة عبر الصُّور تحار لصغر حجمها، كيف دخلها الرَّسول، حسب ما تروي الرِّوايات، وأنزل وكسر الأصنام، وكيف كانوا يدخلون إليها، وهي بهذا الحجم المكعب الصَّغير. لكن هذا التَّصور يسقط من الذَّاكرة عندما تراها بأم عينك، فهي كبيرة، وتتسع مِنْ داخلها، على ما يبدو مظهرها الخارجي، لجماعة من النَّاس.

ويمكن لك تصديق حكاية تعليق المعلقات الشِّعرية السَّبع - وقيل العشر- على جدرانها، وما كانت تحوي في بطنها من الأصنام والصُّور، ومنها صور إبراهيم الخليل ومريم العذراء وولدها عيسى، حسب ما جاء في تاريخ مكة للأزرقي. إنها تعلو وكأنها عِمارة، ومَنْ حولها من الطَّائفين يبدون أقزاماً، مهما كانت أطوال قاماتهم، وبواباتها عريضة، بحوالى المتر والنصف.

لذا جوفها المربع وهو يسمى بالمكعب، وتسميتها مِنْ شكلها، يخزن الحوادث والأخبار التي مرت عليه، أو دارت بصحن

مسجدها، مِنْ مواسم ومعارك وحوارات. هنا، وعلى الرَّغم مِنْ قلة الطَّائفين في تلك الساعة مِنْ الظَّهيرة.

إلا أن الأيدي كانت مشتبكة على الحجر الأسود، وتجد المشقة بالوصول إليه، والتَّدافع نحوه على ما يبدو يسقط كلَّ الاعتبارات الإخلاقية، مِنْ ألفاظ الاعتذار أو الحذر مِنْ إيذاء الآخرين، وعلى وجه الخصوص عندما يكون الساعين إليه مِنْ الأفغان أو الباكستانيين والهنود وغيرهم من تلك الأمم، تراهم ينطلقون في الطَّواف والسَّعي بقوة لا ينظرون أمامهم إلى شيء سوى الهدف وتأكيد القول: «الثواب على قدر المشقة». ولا أدري إذا ما فكر القائمون على نظام الحرم بجعل الساعين إلى لمس الحجر طوابير، ينتظمون إليه، ولا أدري أيضاً إذا ما كان الرأي الفقهي يسمح بالانتظام طوابير أم لا.

مقابل مكان الحجر الأسود يقف شرطي يحاول جاهداً فك الاشتباك عند السَّعي إليه، أو منع الاحتكاكات، التي قد تؤدي إلى الأذى حيث ينتصب مقام إبراهيم الخليل، ولا بد مِنْ الصَّلاة عنده، وهو عبارة عن برج صغير مِنْ النَّحاس يرابط عنده أحد رجال هيأة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، منعاً لممارسة ما لا تجوز ممارسته من التَّقبيل والتَّوسل.

في هذا المكان فقط، مِنْ أمكنة العالم، وأعني صحن المسجد، لا تحار بالسُّؤال عن اتجاه القبلة فأين ما اتجهت تجدها

أمامك. وأنا أقف ذاك الموقف تذكرت جملة من النُّكات التي يُطلقها، ربما للممازحة النَّاس بعضهم بعضاً، أو لخبث مقصود، وهو الوجود في ذلك المكان والسُّؤال عن اتجاه الكعبة! سمعتها تُقال في الحوطيين بالمملكة العربية السعودية، وبالعراق في كُرد العراق، وبالمقابل يقولها الكُرد في العرب.

كنت بالرياض عندما شاعت فتوى الشَّيخ السُّعودي يوسف الأحمد، لهدم المسجد المكي، وإعادة بنائه مِنْ عدة طوابق لمنع الاختلاط، وقد نشرت الصَّحافة في اليوم الآخر التَّنديدات بمثل هذا المقترح والدَّعوة الغريبة العجيبة. وهذا ما يُنبيك أن حال النِّساء ليست سهلة، عندما يُطرح موضوع الاختلاط، في النَّدوات والدِّراسة والعمل، مع أن في كلِّ العصور الإسلامية كان الحجيج مختلطاً، وما زال على ذلك.

أتذكر قرأت شيئاً عن منع الاختلاط في الحجيج، أو عند السَّعي للمس الحجر الأسود وتقبيله، بسبب ما قاله الشاعر أبو نواس:

وعاشقيـنَ التـف خدَّهمـا
عِنـد التئام الحجَـر الأسودِ
فاشتفيا مِنْ غيـر أن يأثما
كأنمـا كـانا على مـوعـدِ

نظرت حولي لعلّي أجد أثراً لمكان طالما اسمه يهز العواطف، لأبيات خلدته على مدى التَّاريخ، وسارت به الرُّكبان إلى الآفاق، قاله مضاض بن عمرو الجرهمي حين أخذت خُزاعة من قومه الكعبة مقابل زق زهيد الثَّمن مِنَ الخمرة، والقصة معروفة، ولا يُعلم هل هي خرافة أم حقيقة. ولقيمة هذا المكان واسمه غدا لا تُرثى المدن، ولا ينعى الأصحاب بعد افتراق، ولا يتغزل النَّاس إلا وورد اسم الحَجُون.

كأن هذا المكان الصَّغير المنزوي في أطراف مكة، والذي لا وجود له اليوم، لتزاحم البشر والعمائر، أصبح عاصمة للأحزان والأشواق، والرِّثاء والصَّبابة. ولا أجد في ما أورده التَّاريخ لهذا المنزل ذكراً زائداً على بقية المنازل، التي شهدت أحداثاً جساماً، حتى وفَّر له كل هذه الشُّهرة في الخواطر والقلوب. لكن أبيات من الشِّعر يكاد لايخلو منها كتاب، ولا يستغني عنها نادب خطب الزَّمان، جعلت للحَجُون كلَّ هذه الرُّومانسية!

قال الحرث (وقيل مضاض) بن عمرو الجُرهمي حزناً على البيت الذي صار لغير قبيلته وبثمن بخس:

كأن لم يكن بين الحَجُون إلى الصفا

أنـيس، ولـم يَسـمر بمكـة سامـرُ

ثم شاع على الألسن ما قاله جميل بن معمر:

صادت فؤادي يا بثين حبالكم

يوم الحَجُون وأخطأتك حبائلي

ذلك هو تاريخ الحَجُون في العاطفة.

أما المكان، فهو: الجبل، والمقبرة، والثَّنية، وشِعب الجن. واليوم: اسم لطريق، وقصر، وجسر داخل مكة، وهي أسماء لا تدل عليه. ارتبطت الحَجُون بحدث هام، وهو نقض الصحيفة بين القرشيين ضد محاصرة بني هاشم بشِعب مكة. وقصة الحدث: أن هشام بن عمرو أتى زهير بن أبي أمية المخزومي، وهو ابن عاتكة بنت عبد المطلب، أخت أبي طالب عم الرَّسول، قائلاً: «أرضيت أن تأكل الطَّعام، وتشرب الشَّراب وأخوالك بحيث علمت؟ فقال: ويحك فما أصنع وأنا رجل واحد؟ أما والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها».

اتفقا أن يحرضا غيرهما على نقض صحيفة المقاطعة الشَّهيرة في التَّاريخ. واجتمعوا بالحَجُون ومضوا إلى قريش، وانتهت المقاطعة أو المحاصرة كما هو معروف في القصة. وقال أبو طالب مادحاً هذا الرَّهط:

جزى الله رهطاً بالحَجُون تتابعوا

على ملأ يهدى بحـــزم ويرشـد

وعلى الرَّغم مما مرَ مِنْ أحداث على منزل حَجُون، وما يتنازع حول آثارها ومقابرها، إلا أن الشِّعر أدخلها إلى ذاكرة النَّاس بلون آخر، فهي ليست الجبل، ولا الثَّنية، ولا المقبرة، ولا ساحة الحرب بين الأمويين والزُّبيريين، ولا يأتي منها سيل الدَّم كما رأت هند أم معاوية بن أبي سفيان، بل أمست مفردة تثير المشاعر والشِّعر، وظل ما قاله الجرهمي ملهماً لمَنْ جاء من بعده. قال الأعشى بعد حين:

فما أنت من أهل الحَجُون ولا الصَّفا

ولا لك حــقُّ الشـّرب في مــاء زمـزم

وقال ثابت بن قطنة مادحاً نصر بن سيار:

ديــار ليلــى قـفـار لا أنـيــس بـــها

دون الحَجُون وأين الحَجُن من داري

للأسف لم أجد أثراً لهذا المكان، الذي عاش في ذاكرتي وما يزال، سوى أسماء أُطلقت على محال ودروب، لا تعني شيئاً قياساً بشهرة الحَجُون، وبالفعل كنت تواقاً للوقوف على أثر مِنْ آثاره، أو فسحةً مِنْ الأرض تدل عليه، دون اعتماد على روايات وأشعار مستلة مِنْ كتبِ التَّاريخ.

الصُّعود
إلى غار حِراء

لم يبق من الوقت متسعاً، فلا بد من التَّحرك لزيارة جبل النُّور، حيث يقع غار حِراء في رأس قمته، ذلك المكان الذي بدأ منه ما قلب تاريخ المنطقة، وهو محل اعتكاف النُّبوة، ومنشأ إشارات الوحي الأولى. تبدو التَّسمية حديثة، وتعني ظهور نور الإسلام، لكنه في كتب التَّاريخ لم يسم بغير جبل حِراء، حيث يقع الغار. الجبل شاهق قياساً ببقية الجبال، ويبدو مِنْ الوهلة الأولى سفحه حاداً، يصعب تسلقه، إلا أن هناك مدرج يصل حتى الغار، درجاته متباعدة ومرتفعة، لذا يشق على الصَّاعد الارتقاء إليه بسهولة.

عند قاعدة الجبل محل لبيع الشَّراب البارد وعصي معكوفات، يشتريها الرَّاغب في الصُّعود إلى الغار ليتوكأ عليها، ولكن ربما لها مأرب آخر بعد الوصول إلى منتصف الجبل، وهو طرد القرود، التي قد يضطرها الجوع والعطش إلى مهاجمة الزَّائرين. كان هناك

جماعة من الشَّباب ومعهم امرأة ظننتها أختهم لكنها ظهرت والدتهم، وهذه مِنْ تويهمات الزَّواج المبكر، يشدون على رؤوسهم عمائم خُضر تلتف على قبعات بيض، سألتهم بالإنكليزية مِنْ أين قدمتم! قالوا: مِنْ لندن، ومِن باكستان بالأصل.

سألتهم عن مذهبهم، فهم مسلمون حتماً فلا يدخل مكة سوى المسلمين، حيث علامة «لغير المسلمين» كبيرة يقرأها القادمون من أي اتجاه حيث تشير إلى خارج مكة والمدينة. لكن مع السؤال أعطيت الإجابة: أأنتم مِنْ الصُّوفية! قالوا: نعم. ومِنْ أيهم، القادرية أم النقشبندية! فقالوا: نحن نقشبندية. والسؤال والجواب جعلهم يطئنون لي.

لكن، ما إن قلتُ لهم كنت أسكن قريباً مِنْ ضريح الشَّيخ عبد القادر الكيلاني ببغداد- وبالفعل كنت أسكن في ساحة الوثبة في شقة كضيف دائم على الصَّديق سعيد نعمان الهيتي أيام الدَّارسة، الذَّي غرق بماء الفرات عند نواعير هيت محاولاً انقاذ ولده.

ما أن قلت ذلك إلا وانفرجت أساريرهم، فقدمت لي والدتهم العصا التي بيدها لأضع يدي عليها لتبريكها، ظاناً بالبداية أنها كانت تريد استبدالها بعصاي. ثم تقدم الشَّاب، وهو طالب جامعي بلندن، وطأطأ رأسه لأضع يدي عليه للمباركة. وتغير الموقف وأصبحتُ بغمضة عين رأساً للجماعة، وقد شعرت بهذا الشُّعور

وضحكت منه، وأنا أحمل عصاي متوكئاً عليها بوقار شيوخ الطُّرق وسادتها، صعدنا الجبل ولم يتقدمني أحد منهم حتى النهاية.

شباب ولدوا وتعلموا ودرسوا بلندن، كيف تمكن الأهل مِنْ ربطهم هذا الرباط، وما هو تأثير التعليم والحياة في أرقى المدن عليهم! مِنْ المؤكد أنك تجد بأقصى قرى ومدن باكستان وبنغلادش مِنْ هم أرقى منهم بكثير، لكنها ليست القاعدة إنما يبقون شواذاً.

إنها المجتمعات التي تقفل على نفسها في غيتوات وسط لندن أو برلين أو نيويورك، يجدون بالخرافة والشعوذة هوية تجمعهم، وكيف تغلب العقائد في الرؤوس، إلى حد إلغاء أي مظهر حضاري، ولا تتم الصِّلة بالله إلا عبر شيخ وخرقة خضراء.

ما صار بالعراق مِنْ ظواهر المشايخ والأتباع، وكيف تمارس العقيدة الدِّينية عنفوانها، وكيف تستغل وتصبح باباً للاستثمار وللجاه والمال! قلت: ماذا لو تكاثر هؤلاء حولي الآن عند سفح جبل حِراء، وتسربلت بشال أخضر وعمامة سوداء، وقبضت على الكبريت من علبة «الشَّخاط» ليظهر مِنْ بين أصابعي دخان أبيض، وارجف كما يرجف الكهنة بفعل الجن!

فعلها المعاق السَّيد نور بمنطقتنا (1964)، والتف حوله المئات، يسيرون بسيره ويقفون بوقوفه! ومِنْ بينهم معلمون

مدرستنا! أفعلها بمكان يجمع بين هيبة التَّاريخ ووحشة مخيفة إلا مِنْ الرِّياح التي تكاد تهز جبل حِراء نفسه، ألم أكن قائد طريقة أو شيخ جماعة، فكم هي سهلة المؤهلات، لو شطح الإنسان صوب الحيلة واللعب بالمقدسات! لهذا ليس لأحد الاستغراب مما حدث بالعراق، وما تخرج مِنْ تلك الشَّطحات مِنْ قادة!

تعجبت كثيراً من رؤية شباب وكهول معاقين إعاقات بليغة، مِنْ أفغانستان، وإيران، وباكستان، وبلاد ما وراء النَّهر، بين مبتور السَّاق، وفاقد اليدين، وأعمى، ومرتعش. كيف وصل هؤلاء إلى منتصف الجبل، ومنهم مَنْ رأيته قريباً مِنْ الغار بمرحلة أو مرحلتين. حاولت التَّحدث مع (أتباعي) المرتقين معي الجبل عن هؤلاء المعاقين، وكيفية وصولهم إلى هذا المكان، إلا أنهم ردوا بما في نفوسهم: أنهم وصلوا بقدرة الله، وبركة المكان!

وصلنا إلى مرحلة مِنْ الجبل غدت الرِّياح الهوج تشتد، والسفح بدا حاداً، وليس هناك ما يُلاذ به مِنْ السُّقوط في فم الوادي السِّحيق، لو فعلتها الرِّياح وتحولت إلى إعصار؟! بدأت أصوات القرود تُسمع بوضوح، وهي صغيرة الحجم مِنْ النوع الذي يعيش بجبال اليمن نفسها، ويبدو أنها مِنْ ذلك الجنس حيث يطلق اليمنيون على الواحد منها صالح الرَّباح، ولا أدري ما السبب.

أخذنا نشاهد القرود وهي تتقافز وتتعارك وتعيش على ما يرمى لها مِنْ فضلات عند سفح الجبل، وما تصيده مِنْ حشرات

وهوام. فهنا العقيدة السارية والمطبقة رسمياً أن لا حجراً مقدسٌ، مهما كان الأثر فيه لنبي أو إمام. ولو كان هذا الجبل ببلاد أُخرى لكانت طوابير الزِّيارة تمتد مسافتها حتى الكعبة، وهي تبعد أكثر مِنْ ثلاثة أميال، ولأصبح مصدر رزق ومعاش هائل.

هذا ما تحدثت به مع الأصدقاء بالمدينة المنورة بعد الانتهاء مِنْ زيارة مقبرة البقيع. قلت لهم: لديكم خزائن مِنْ الموارد، صالحة للاستثمار، ماذا لو كانت عندنا، فالنُّذور إليها تكفي معاشاً للبلاد، لكن بالمقابل تولد شل العقل والانحدار صوت الشَّعوذة، فأصحاب القبور عندنا درجات، والزِّيارات تستمر طوال أيام السَّنة، وأغلبها زيارات مراد، أي طلب الشَّفاعة، مِنْ شفاء المرض، إلى النَّجاح بالمدرسة أو الكلية، بما فيها كلية الطب، وأخرى بنوايا سياسية لجذب الأتباع، وهي مِن حصة أهل السُّلطة، وقادة الأحزاب والجماعات الدِّينية، التي تحاول عادة الحِفاظ على هذا المستوى مِن الثَّقافة المتردية لدى الجمهور، فتأمل!

بدأت أنفاسي تتقطع وأنا أهم بالارتقاء درجة بعد أخرى، وأجدها تتباعد كلما قطعنا شوطاً مِنْ سفح الجبل. كان الخوف يتسرب إلى القلب مِنْ صوت الرِّيح العاتية، وما تحمله الذَّاكرة عن المكان مِنْ كرامات. لكنه إصرار وموقف أمام الذَّين يتبعونني مِنْ الشَّباب، حيث وضعت بموضع الشَّيخ لهم، لأني كنت مجرد جار

لضريح الكيلاني ولشهر لا أكثر، فكيف لو كنت أحد أحفاده، أو مِنْ خدامه، فما حجم النِّعمة التي ستحل عليَّ!

لو قلت لهم إذا كان لديهم نذر أحمله إلى ضريح الشَّيخ! وكم حول الأضرحة مِنْ تلك الحيل، حيث يتحول الزَّائر إلى هدف للسَّلب باسم صاحب الضَّريح، وكم مِنْ الأضرحة ما كانت أجوافها فارغة، لكنها اشتهرت وانتصرت الأكاذيب التي حولها. كلُّ هذا كان يدور في داخلي، وأنا أرى تعامل أولئك الصُّوفيين لجار غير أصيل للشَّيخ عبد القادر الكيلاني!

بشق الأنفس وصلنا فتحة الغار، وبدا الوادي سحقياً مِنْ تلك القمة، والرِّيح أخذت تُعصف بشراسة، تركت عصاي وبدأت أزحف متمسكاً بالصُّخور، وإذا برجل يرفع رأسه مِنْ على نتوء صخري، كأنه يطلب الانتحار، قال مشجعاً بلغة مشوشة، تجمع بين العربي والهندي أو الأوردي: وصلت لا ترجع، لا تترك عظمة الثَّواب! قال ذلك لأنه رآني زاحفاً مضطرباً ليس أمامي غير النُّزول، وكنت أتمناه، بل ندمت على هذه المغامرة. على أية حال وصلت ورأيت جوف الغار، واكتفيت بنظرة خاطفة، فلا شيء سوى الأحجار والأثر الضَّارب في عمق الذَّاكرة، مع شعور بهيبة المكان.

مكان يوحي بالكثير، فهو مفتوح على الفضاء، لا يكون عادياً أمر التَّأمل فيه، أو اتخاذه معتكفاً، فمنه تطل على السحب التي تراها

تتحرك وهي «السَّحَابَ الثِّقَالَ». وما خلف الوادي أفق صحرواي شاسع، ينبيك أن أمراً غير عادي تمخض عنه هذا الجبل، ولو أُطلق العنان لممارسة التَّقديس مِنْ أعاليه لنافس المسجد الحرام.

لكن هناك على ما يبدو عناية أثارية في المكان، بعد إطلاق الاهتمام بالآثار، ربما ستوازن بين الاندفاع لتقديس الحجر والرَّغبة في رؤية الأثر، وما تنطوي عليه مِنْ دلالة التَّاريخ.

خاتمة

عدت مِنْ مكة، وفي أمنيتي تتبُّع طريقين: طريق الهجرة النَّبوية مِنْ مكة إلى المدينة، بعد المرور على جبل ثور وغاره، الذي هو الآخر شهد معجزة وانطلاقة مقدسة، كامتداد لما حصل بغار حِراء، والفرق بينهما أن ذاك في ذروة قمة الجبل وهذا عند السَّفح، مثلما قيل لي. ذاك كان للتأمل والتحضير لاستلام الرسالة، وهذا مرحلة طريق وحماية لتلك البداية.

أما الطريق الثاني فهو طريق زبيدة المنطلق مِنْ العِراق حتى مكة، وقد شوقني إليه ما قرأته في كتاب الآثاري السعودي المنوه عنه في مستهل هذه الخواطر. لكن لم يحصل ذلك.

لم ينته الحديث عن نجد والحجاز وبقية أطراف المملكة العربية السعودية، إنما له تكملة نتركها لمناسبة أخرى، وستأتي كجزء ثان بعد هذا الجزء اليسير مِنْ الخواطر والانطباعات، إذا ما سنحت الفرصة.

فهرس الأعلام

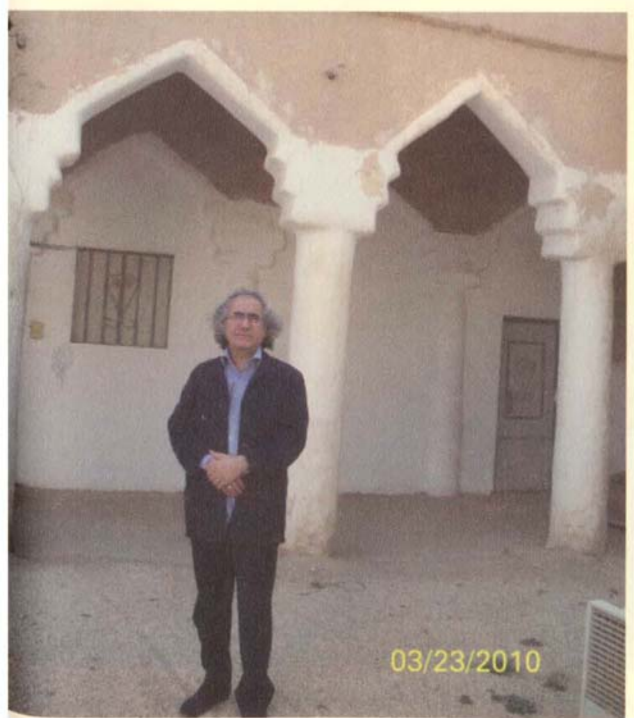
فهرس البلدان والأماكن والمواضع

ذاكرة الكاميرا

مع تركي السّديري أمام داره بالرّياض

مشاري الذايدي أمام آثار الدّرعية بالرّياض

مِن آثار الدّرعية بالرّياض



عند مسجد الدّرعية
القديم بالرّياض

03/21/2010

عمامة شاميّة وأخرى عُمانية

03/20/2010

مع أدباء عُمانيين خلال ندوات الجنادرية بالرّياض

المؤلف بين السيّدين علي الأمين ومحمد حسن الأمين ويبدو مصطفى الأمين أثناء المهرجان 2010 الجنادرية

مع الشاعر محمد الجلواح بقاعة الندوة

03/21/2010

مع شاب ليبرالي في الثامنة عشرة (فاتني تذكر اسمه)

03/20/2010

مع السيِّد هاني فحص

مع الأكاديمي حمزة بن قبلان المزيني

مع الأكاديمي مرزوق بن تنباك

لوحة الشهيد الإمام الحسين بدارة تركي السّديري



من صور رؤساء قسم اللغة العربية - جامعة الملك سعود ويبدو المخزومي الرئيس الثاني

الشيخ سالم الخيون في ضيافة ولي العهد الأمير سعود بن عبد العزيز 1952

ولي العهد الأمير سعود بن عبد العزيز يستضيف الشيخ سالم الخيون 1952

مع حرس الشرف بالقصر الملكي 2010

مع صالح المنصور بالرّياض

03/20/2010

مع ناصر الحُزيمي بالرِّياض

03/20/2010

ندوة الفضائية السُّعودية المؤلف ومقصود ونصرالله ومقدم البرنامج البودي



عمارة تُراثية بجدة

03/29/2010

واجهة بيت ناصيف بجدة - هيأة الآثار

03/30/2010

مدير الآثار بجدة المهندس سامي نوَّار

03/29/2010

مع عبد الرحمن العوشن بأعلى بيت ناصيف بجدة

03/30/2010

المستشرقة الألمانية اولريكة بجدة القديمة

المعماران عنقاوي وعدس خلال ندوة دارة عنقاوي الثقافية بجدة

مع الكاتب محمد عبد الواحد في ندوة الشعر بنادي جدة الثقافي

لوحة تشير: لا يجوز دخول غير المسلم إلى مكة والمدينة

داخل مكتبة المسجد النَّبوي مع أحد الطلبة الأجانب

مع رئيس القسم المكتبي بمكتبة المسجد النَّبوي محمد بن عبد الرزاق الصانع

نادي المدينة الأدبي: الأكاديمي العُسيلان، الكاتب الشريف، المؤلف، الباحث نصرالله، والأكاديمي الدعيس

رفيق الرحلة إلى مكة والمدينة عمر الحضرمي

في أداء العمرة 1 نيسان (أبريل) 2010

في الطريق إلى غار حِراء مع شاب صوفي باكستاني الأصل

عدد من الشباب المستجيرين بالمعتزلة

المصور عبد النور السوداني

أفق الصحراء حول مدينة الرياض

عبد الله بعد عام من شجاره معي على مجلة لغة العرب

رسالة الشيخ مبارك آل الصَّباح إلى حسن آل خيون 1902

مع بدر حربي واقارب وأصدقاء مِن الشباب المستنير



أحد شيوخ الكويت باستقبال
سالم الخيون 1952

تركي الدّخيل وأصدقاء بالبر

مع الأصدقاء في رحلة إلى البر

يقول الدكتور الخيون:

«جاءت هذه الصفحات كخواطر عن مكان، فكرت كثيراً في شد الرحال إليه، لِما شغل الذاكرة».

«فالجدود الأعلون والأدنون زاروه عبّر الصحراء أو عبر البحر، وتحدثوا عن مشاهداتهم».

ثم يقول: «زرت العديد من البلدان ولم يخطر لي أن أكتب خواطر تفصيلية».

ونقول: إن من يدخل إلى الكتاب يرى ذلك ويرى غير ذلك. يرى الخواطر التفصيلة خواطر توثيقية.

ثم يرى أنه أمام بحاثة نَهِمٍ، يلتهم عقله كل ماتقع عليه عيناه، وتستمع إليه أذناه، وتتلذذ فيه رغبات من لا يدع شاردة ولا واردة، فيها متعة للعقل، إلا وجذبها كصياد رمى شباكه في البحر للسمكات الذهبيات وليس لغيرها.

تحتار لهذا النَّفَس الموسوعي لتتساءل، هل لدى هذا الباحث متسعٌ من الوقت لأشياء أخرى؟!


ISBN 978-9953-566-11-5


مـــدارك Madarek
دار مـدارك للنشـر Madarek Publishing House